مقومات الإنسانية

فى

القرآن الكريم

للدكتور أحمد ابراهيم مهنا

بسم الله الرحمن الرحيم

●● تقديم :

لفضيلة الأستاذ / الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ورضى الله تعالى على آله وأصحابه والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد .

فقد شاءت إرادة الله الرحيم بعباده أن ينزل القرآن العظيم ، على سيدنا محمد خاتم الرسل ، فبشر به ، وهدى إليه ، حتى قامت دولة الإسلام على أقوى ماتقوم دولة من دعائم ، أرسى قواعدها هدى رب العالمين .

فهدى العقول إلى التفكير المتزن ، وهدى العواطف إلى التذوق السامى وهدى الفرد إلى السلوك الأمثل ، وهدى الأسرة إلى المودة الكريمة وهدى المجتمع إلى الحياة الفاضلة ، يقول عز من قائل﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾ «النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥»

ولقد شهد الوجود الإنسانى هداية القرآن الكريم للإنسانية ، وجعله الله عز وجل دستورا كاملا وشاملا بحيث لا تبقى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بين حكمها سواء فى ذلك شئون العقيدة أو العبادة أو السياسة

أو الإجتماع أو الإقتصاد، أو الحروب أو السلم، أو التشريع، إلى آخر مايتصوره الإنسان من شئون الإنسان، يقول تعالى واصفا كتابه: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ «سورة النحل آية ٨٩»

ولقد قام هذا المجتمع المسلم على المحبة والإيثار، والمودة والرحمة، فصار المسلمون جميعا جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وهكذا تحول الشعور الفردى الأنانى إلى شعور جماعى إنسانى فى ظل تعاليم السماء وغاب فى هداية القرآن الكريم للإنسانية كل شعور بالعنصرية، فكان صهيب الرومى، وسلمان الفارسى، وبلال الحبشى، أخوة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى التوادد والتعاطف، والتضامن، والوحدة.

لقد صنعتهم هداية القرآن الكريم على رضوان من الله فكانوا نمودجا يشهد بأن التى هى أقوم هى التى يدعوا إليها القرآن الكريم وقد شملت هداية القرآن الكريم جوانب الحياة فى الدنيا والآخرة فهو فى الدنيا يزكيهم ويعلمهم الحكمة ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فيكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وفى الآخرة نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ «يونس آية٢٦» إنها

حياة ممتدة بظلها القرآن الكريم بالهداية في شطريها : بالعبادة فى دار الفناء، والسعادة والخلود فى دار البقاء.

وهذا الكتاب الذى نقدمه لحضرات القراء وعنوانه «مقومات الإنسانية فى القرآن الكريم» لمؤلفه الأستاذ الدكتور. أحمد ابراهيم مهنا قد بذل فيه صاحبه جهدا مشكورا وألقى فبه أضواء كاشفة على جوانب هامة من هداية القرآن الكريم للحياة الإنسانية.

ولما كان هذا المؤلف القيم قد نفذت نسخه من أيدى القراء كان هذا مدعاة لإعادة طبعه من جديد لما فيه من النفع الكثير والخير العميم.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من التمس علما، وأراد خيرا، وأن يجزى مؤلفه كل خير بما قدم للإسلام والمسلمين.

والله الهادى إلى سواء السبيل.

فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

السيد وفا حسن أبو عجور

مقدمة

ميز الله سبحانه وتعالى النوع الإنسانى عن غيره من المخلوقات بما عهد إليه من رسالة أوجب عليه القيام بها، تلك الرسالة التى عبر عنها قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [1].

والخلافة فى الأرض ـ كما نفهمها من آيات الله البينات ـ تعنى تعمير الأرض بإشاعة الخير والسلام فيها، والعمل على إظهار عظمة الخالق وقدرته عن طريق الانتفاع بما خلق الله.

والقيام بهذه الرسالة التى أؤتمن الإنسان عليها يستلزم:

١ ـ أن يكون له من الخبرة بما يمكنه من أدائها، وقد أنعم الله عليه بما يحتاج إليه فى هذا السبيل، فمنحه القدرة على التعلم والانتفاع بكل ماتقع حواسه عليه حين منحه المعرفة التامة لخصائص الأشياء كلها، وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [2].

٢ ـ وأن تخضع له المخلوقات الأخرى ليتم انتفاعه بها كما ينبغى، وتلك نعمة أسبغها الله عليه إذ سخرها له وأساس قيادها لنفعه.

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) البقرة ٣١

وبهذا صار الإنسان مكلفاً بأن يعمل كل ما من شأنه أن يعينه على أداء الرسالة التى نيطت به، ومكلفاً كذلك بأن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يقطع عليه الطريق المؤدى إلى الغاية المذكورة، ومن هنا كان الأمر والنهي فيما جاء من الله من رسالات لهداية خلقه والأخذ بيدهم فيما طلب منهم تحقيقه.

● ● ●

وإذا كان من خلق الله ملائكة ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1].

فإن الإنسان قد خلق على نحو آخر أراده الحكيم الخبير، إذ جعله على طبيعة صالحة للميل إلى الخير كما أنها صالحة للميل إلى الشر، فهو غير معصوم من اقتراف الذنوب، وصدق الله حيث يقول:

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها﴾[2].

وحيث يقول:

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل، إما شاكراً وإما كفورا﴾[3].

---

(١) التحريم ٦ (٢) الشمس ٧، ٨ (٣) الإنسان ٢، ٣

وقرن سبحانه صلاحية طبيعته للفجور والتقوى بمنحه القدرة على تحقيق ما تميل إليه نفسه وبين له أن نتيجة اختياره وثمرة عمله ستعود عليه، ومن نوع ما عمل:

﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾[1].

فالإنسان إذاً مسئول عن عمله، وهو ماقرره الكتاب الكريم فى مثل قول الله تبارك وتعالى:

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾[2].

والمسئولية تتطلب الإرادة الحرة، وقد وهبها الله لعباده من بنى الإنسان، لأنه سبحانه عادل لايظلم، ومن هنا أهدر كل ما يأتيه الإنسان عن إكراه وقسر فى جانب الإيمان والكفر سواء، فمن أكره على أن ينطق بكلمة الكفر فلا حرج عليه وهو مصداق قوله تعالى:

﴿من كفر من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[3].

ومن آمن تحت ضغط الظروف القاهرة ودون إرادة منه فإيمانه مردود عليه، ففرعون ظل سادرا فى غيه ينادى أنا ربكم الأعلى:

﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[4]. ولكن إيمانه رد عليه وقيل له:

---

(١) الشمس ٩، ١٠ (٢) الطور ٢١ (٣) النحل ١٠٦ (٤) يونس ٩٠

﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾[1] .

• • •

وإذا كانت طبيعة الإنسان صالحة للميل إلى الخير وللميل إلى الشر ، فإن الدارس للكتاب الكريم يستطيع أن يستنتج أن الميل إلى الخير هو الجانب الأغلب فى هذه الطبيعة ، وأنها لو تركت وشأنها دون أن تتكالب عليها عوامل الفساد لما حادت عن الطريق المستقيم ، وهو مايشير إليه قول الله تبارك وتعالى :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله . . .﴾[2] .

وعوامل الفساد والشر كثيرة ، منها مايكمن فى نفس الإنسان ويتمثل فى الميول التى تمكنت بفعل الزمن وتأثير البيئة حتى صارت جزءاً من طبيعته يصدر عنها كثير من تصرفاته ، ومنها ما يأتيه من خارج نفسه ويتزعمها إبليس وجنوده ، ذلك المخلوق الذى أبى أن يسجد لآدم إذ أمره الله بذلك ، والذى طرد من رحمة الله وحلت عليه لعنته بسبب عصيانه هذا ، وأقسم أن يكرس حياته لإيقاع آدم وأبناء آدم فى معصية الله ،

---

(١) يونس ٩١ ، ٩٢ (٢) الروم ٣٠

وقال للخالق جل وعلا:

﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[1].

والإنسان الذى يبغى الاحتفاظ بإنسانيته عليه أن يصارع هذه القوى، وأن يتحصن بما يرد هجماتها ويضعف تأثيرها، ومن رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم دون إمداد بفضله عونا منه لهم فى صراعهم المستمر طول وجودهم فى هذه الحياة، فلقد أنار لهم الطريق، وبين لهم المعالم، وتعهدهم فى أطوار حياتهم بالرسالات التى بينت لهم ما تتطلبه الحياة الصالحة فى كل عصر، وصدق الله إذ يقول:

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾[2].

وكان آخر هذه الرسالات تلك التى اصطفى لها خاتم أنبيائه ﷺ وبين حدودها فى كتابه الكريم الخالد، ووعد، وهو الذى لا يخلف الوعد - بأن يحفظه مما لحق بغيره من التبديل والتحريف والمسخ، وصدق العلى العظيم حيث يقول: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[3].

وبهذا قطع طريق الاعتذار على كل من يتخذ إلهه هواه، ولا ينتفع بما أنعم الله عليه من عقل يعينه على التمييز بين الحق والباطل، ومن هدى

---

(١) الأعراف ١٦، ١٧ (٢) فاطر ٢٤ (٣) الحجر ٩

يساعده على التغلب فى ميدان الصراع مع قوى الشر الباغية، وذلك مصداق قوله تعالى:

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما ﴾[1].

• • •

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[2].

وتلك منحة كريمة من رب كريم، توجب الشكر لمانحها سبحانه، وشكره والاعتراف بفضله هو الحد الفاصل - فى عرف القرآن الكريم - بين الإنسان الذى آمن بربه وحاول جهده أن يسير على ما رسمه له منتفعا بكل ما وهبه الله من نعمة السمع والبصر والفؤاد، وذلك الذى تنكب الطريق وضل فى متاهات الهوى والشهوة، وأصم أذنيه عن سماع الحق، وعطل نعمة العقل فلم ينتفع بها، فانحدر إلى مستوى لا يليق بالمخلوق الذى كرمه الله، هذا الصنف الذى يقول القرآن فيه.

---

(١) النساء ١٦٥　　　(٢) الإسراء ٧٠

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا ﴾[1] .

وهو نفسه الذى يقول فيه القرآن كذلك :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾[2] .

فالإنسانية الحقة لها مقوماتها التى لا توجد بدونها ، وهذه المقومات تستمد حياتها ـ كما يفهم من الكتاب الكريم ـ عن طريق الحواس التى تؤتى ثمرتها ، وعن طريق العقل الذى يقود إلى الصراط المستقيم .

ولا يصح فى عرف المنطق السليم أن تكون تلك المقومات مادية أو مما تتطلبه المادة ، وإنما هى معان سامية تعلو بمن يمارسها إلى ما يتفق مع مكانة الإنسان الفاضل الذى جعله الله خليفة فى الأرض.

• • •

ويحدثنا تاريخ العلوم أن علماء الأخلاق وعلماء التربية والفلاسفة فى كل عصر حاولوا جميعا تحديد هذه المعانى رجاء الوصول إلى رسم الصورة الكاملة للإنسان الفاضل على حد تعبير كل منهم، وبالرغم مما

---

(١) الفرقان ٤٣ ، ٤٤ (٢) الأعراف ١٧٩

نجد فى أفكارهم من خلافات ، تصل أحيانا إلى حد التناقض ، فإن الهدف الذى كانوا جميعاً يقصدون إليه هو تحديد صفات المجتمع الإنسانى الذى يليق بهذا النوع المميز بنعمة العقل والتفكير .

ولما كان القرآن الكريم هو هدية الله إلى خلقه ، فهو فى يقيننا خير مصدر يرسم لنا الصورة المتكاملة للإنسان الفاضل كفرد مستقل في مسئوليته ، وكعضو فى جماعة تسعى إلى تحقيق ما وكل إليها من رسالة سامية .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نضع أمام القارىء ما يستلزمه وجود الإنسانية الفاضلة من مقومات ، مستمدين ذلك من الكتاب الكريم ومستعينين بالله فى أن يهدينا إلى الصواب لفهم كتابه . وراجين منه أن يوفقنا للعمل بما فيه . إنه نعم المولى ونعم النصير .

ربنا عليك توكلنا . وإليك أنبنا . وإليك المصير .

أحمد إبراهيم مهنا

تحديد المعانى

التى يعتبرها الكتاب الكريم مقومات للإنسانية الفاضلة

ولتحديد هذه المعانى كان لا بد لنا من أن نتعرف على أسلوب القرآن فى حديثه إلى الإنسان وفى حديثه عنه فى كل مايتصل بتطورات حياته منذ بدايتها حتى اللحظة التي تنتهى فيها وقد وجدنا :

١ ـ أن هذه المعانى لا يجوز أن يعزى وجودها إلى المرحلة الأولى من حياة الإنسان ، لأن أفراد النوع الإنسانى جميعا مشتركون فى خصائص هذه المرحلة ، لا فرق فى ذلك بين من آمن بعد ذلك ومن كفر ، فكل منهم خلق من ذكر وأنثى[١] ، كما قرر الكتاب الكريم في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾[٢] . وكل منهم خلق من نفس واحدة وخلق منها زوجها كما جاء فى قوله عزل وجل :

﴿ يا أيها الناس اتقو ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾[٣] . وكل منهم خلق من سلالة من طين ، ومر بالأطوار التى انتهت بولادته طفلا . وهى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار

---

(١) ماعدا آدم وزوجه وعيسى عليه السلام — (٢) الحجرات ١٣ — (٣) النساء ١

مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1].

وفى قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلا.. ﴾[2].

وكل منهم ينطبق عليه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ الله الذى خلقكم من ضعف، ثم جعل من بعد ضعف قوة ﴾[3].

وكل منهم يندرج تحت قوله عز وجل :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل ﴾[4].

وقوله سبحانه :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[5].

٢ ـ وكما أن هذه المعانى لا يجوز أن تعزَ إلى المرحلة الأولى من حياة

---

(١) المؤمنون ١٢ ـ ١٤ (٢) الحج ٥ (٣) الروم ٥٤
(٤) الإنسان ٢، ٣ (٥) التين ٤

الإنسان، فكذلك لا يجوز أن نعزى إلى المرحلة الأخيرة من مراحل حياته، ذلك لأن الشأن فيها كالشأن فى الأولى من أن أفراد النوع الإنسانى جميعا متساوون فى تلك المرحلة ونعنى بها نهاية الحياة على هذه الأرض بالموت مهما اختلفت أسبابه، وتعددت طرقه وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[1].

وحيث يخاطب عباده، فيقول:

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ، ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[2].

وعبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بوضوح كذلك حينما خاطب الله رسوله ﷺ بقوله تعالى:

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مِتَ فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت ﴾[3].

ويقول سبحانه :

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾[4].

٣ ـ وكذلك لا يجوز أن تعزَ هذه المعانى إلى النعم التى أسبغها الله على عباده مما لا دخل لهم فيه ولا يدخل تحت قدراتهم فإذا أراد الله لإنسان

---

(١) آل عمران ١٨٥ (٢) النساء ٧٨
(٣) الأنبياء ٣٤ ، ٣٥ (٤) الزمر ٣٠

الغنى وأراد لآخر الفقر فلا صلة لهذا الفقر أو ذاك الغنى بالمعانى الإنسانية، مادام المرء لم يستخدم هذا الغنى أو ذاك الفقر في تصرفاته التى يسأل عنها، وكذلك يقال فيما يتعلق بنعم الله العامة التى أسبغها على عباده وسخرها لهم مما نلمس فيه الشمول والتعميم بالنسبة للنوع الإنسانى كله، كالذى نجده فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[1].

وفى قوله سبحانه:

هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون﴾[2].

٤ ـ لم يبق أمامنا إذا سوى المرحلة التى يبلغ الإنسان فيها رشده ويستخدم فيها إرادته، ويسجل فى عداد المسئولين عن تصرفاتهم، فتلك هى المرحلة التى يختلف فيها الفرد عن الفرد، وينقسم الناس فيها إلى

---

(١) الإسراء ٧٠ (٢) النحل ١٠ ـ ١٣

مؤمن وكافر، أو طائع وعاص، أو مهتد وضال، وتلك هى المرحلة التى نراها فى كثير من آيات الله البينات وقد حكم على الإنسان فيها بأحد الوصفين.

وقد يلاحظ أن القرآن الكريم عندما يقسم الناس إلى فريقين متقابلين فى هذا المجال، إنما يفعل ذلك بعد أن يذكر بعض النعم التى أسبغها الله على عباده جميعا مما يستلزم الشكر والاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل، ففى قوله تعالى:

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا، إنا هديناه السبيل ﴾[1].

نلمس المساواة بين الأفراد جميعا في كل ماذكر، ونجد أن النعم التى تحدث القرآن عنها لا دخل للفرد فيها، ولا إرادة له فى الحصول عليها أو الحرمان منها، وإنما هى هبة من الله له، أما مابعد ذلك من قوله سبحانه فى نفس الآية:

﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فهو ينطق بإسناد الشكر أو الكفر إلى الإنسان، وهو ما يحقق التفرقة بين مَن يعترف بالجميل ومن يجحد الفضل ولا يقدر النعمة.

---

(١) الإنسان ٢، ٣

وفى قوله تعالى :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[1] .

لا تخطيء المساواة التامة في ذلك بين أفراد النوع كله ، ولكن التفرقة جاءت في قوله سبحانه :

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾[2] .

وهى تفرقة مشروعة ومسببة .

وفى قوله عز وجل :

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[3] .

تبرز المكانة التى أعدها الله لهذا النوع (بنى آدم) فى هذه الحياة ، وهى مرحلة الاختيار والابتلاء ، وكما قرر القرآن وقررت الأديان السماوية جميعا ، لا بد من نتيجة لهذه المرحلة ، ولا بد من تفرقة بين من شكر النعمة ومن جحد بها وأنكرها ، وهو ما نجده فى الآيتين التاليتين :

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو فى

---

(١) التين ٤ (٢) التين ٥ ، ٦ (٣) الإسراء ٧٠ .

الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾[1].

وفيما قصه الكتاب الكريم من شأن آدم عليه السلام، نجد هذا المنهج واضحا جليلا، أقرأ إن شئت قول الله سبحانه:

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾.

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون ﴾[2].

وقوله عز وجل:

﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[3].

فهداية الله إلى عباده والممثلة فى رسالاته وهديه عامة شاملة، أما أثره هذه الهداية في الناس فيختلف باختلاف موقفهم منها وعليهم تبعات هذا الموقف.

وهذا الذى وجه إلى آدم فى أول عهد الإنسان بالحياة، وجه إلى ذريته

---

(١) الإسراء ٧١، ٧٢ (٢) البقرة ٣٧ - ٣٩ (٣) طـه ١٢٣، ١٢٤

كذلك، يقول جل شأنه:

﴿يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

ونخلص من ذلك كله إلى أن المعانى التى تتحقق الإنسانية بوجودها إنما هى مجموعة السمات الطيبة لرحلة الابتلاء والاختبار، وبمعنى آخر أنها الحصيلة التى تنطق بأن من اتصف بها وحقق مضمونها هو الإنسان الذى تحمل مسئوليته كاملة، وكان أمينا فى أداء الأمانة كما طلب منه.

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء بالمؤمنين تارة، وبالمتقين أخرى، وبأولى الألباب تارة ثالثة.

وبيان القرآن واضح فى أن التقوى لا توجد بدون إيمان فهو منها بمنزلة الأساس الذى لا يستغنى عنه، وواضح كذلك فى أن الوصف بأولى الألباب لا وجود له إلا فى ظل إيمان الموصفين به.

ومن هنا يمكننا أن نقول مطمئنين، إن الإيمان هو الأساس فى تحقيق الإنسانية فى الفرد، وبدونه لا يكون لها وجود.

وإذا كان كثير من الأوامر والنواهى وجهت إلى النوع الإنسانى كله

---

(١) الأعراف ٣٥، ٣٦

فى آيات القرآن الكريم، فإن لغة القرآن تنطق بأن الذى ينتفع من ثمار أمثاله لهذه التوجيهات إنما هم الذين آمنوا بربهم فكان إيمانهم أساسا قام عليه بناء أعمالهم الطيبة، أما من كفر بربه فلا ثمرة لأعماله لفقدانها الأساس الأصيل الذى تقوم عليه، وذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[١].

وقوله سبحانه:

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٢].

وقوله عز وجل:

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ﴾[٣].

ومن هنا يمكننا أن نعتبر كل ما أمر الله باتباعه من أخلاق كريمة ومثل

---

(١) آل عمران ١١٦، ١١٧ (٢) ابراهيم ١٨ (٣) النور ٣٩

عليا لبنات في بناء مقومات صرح الإنسانية التى تحاول تحديدها، ونستطيع أن نقول إنَّ تتبع الآيات التى تحدد أوصاف المؤمنين والآيات التى ترشد وتوجه إلى الطريق القويم، سواء أكان عن طريق الأمر بفعل شيء أم عن طريق النهى عن فعل شيء، تسهل مهمتنا وتنير طريقنا، وما دام الإيمان هو الأساس للصرح كله وبدونه لا يوجد البناء، فمن المنطق أن تكون عناصر الإيمان هى المعانى التى نبحث عنها، وبتوضيح هذه العناصر يتضح لنا ما لا بد منه للاحتفاظ بوصف الإنسانية التى يعنيها القرآن الكريم.

الإيمـــان

والإيمان فى لغة القرآن الكريم حقيقة مركبة من التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، نجد ذلك فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب والنبيين ﴾[1].

ونجده فى قوله عز وجل:

﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله، والكتاب الذى نزل على رسوله، والكتاب الذى أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[2].

وإذا كانت آية البقرة قد أجملت فى لفظ الكتاب والنبيين، فإن آية النساء قد أوضحت أن المراد بالكتاب يشمل آخر الكتب المقدسة وهو القرآن الكريم، وذلك بالنص عليه فى قوله تعالى:

﴿ والكتاب الذى نزل على رسوله ﴾ كما يشمل جميع ما نزل من كتب الله قبله، والكتاب الذى أنزل من قبل، وأوضحت كذلك أن المراد بالنبيين يشمل جميع أنبياء الله دون تفرقة بين أحد منهم. وهو ما

---

(١) البقرة ١٧٧ (٢) النساء ١٣٦

نجده فى الآيات الكريمة :

﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[1] .

ووجوب الإيمان بالكتب المنزلة جميعا ينطق برأى القرآن فى الصلة بين هذه الكتب بعضها وبعض. وأنها جاءت كلها من مصدر واحد، واشتملت على أصول موحدة. وتهدف إلى هداية البشر وإنارة الطريق أمام بنى الإنسان وهو مانجده فى حديث القرآن الكريم عن كتب ثلاثة منزلة فى قوله تعالى :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾[2] .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾[3] .

---

(١) النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢ (٢) المائدة : ٤٤ (٣) المائدة : ٤٦

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾[1].

ومن هنا كان الدين واحدا عند الله، هو الإسلام، وكان الإيمان بجميع رسل الله وأنبيائه دون تفرقة بين أحد منهم فرضا على أتباع محمد ﷺ وذلك هو قول الله سبحانه:

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون ﴾[2].

الإيمان بالله :

والإيمان بالله لا بد وأن يشمل الإيمان بوجوده سبحانه وبوحدانيته وقدرته وإرادته وعلمه المحيط وعدله الشامل وكل ما وصف به نفسه سبحانه فى مثل قوله عز وجل:

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾[3].

﴿ قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير ﴾[4].

---

(١) المائدة ٤٨ (٢) البقرة ١٣٦ (٣) البقرة ٢٥٥ (٤) آل عمران ٢٦

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾(١) .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) .

﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (٣) .

والإيمان بالله هو العنصر الأهم فى الإيمان المطلوب ، لأنه أساس للإيمان باليوم الآخر والملآئكة والكتاب والنبيين ، وبدونه لا يتحقق الإيمان بغيره ، ومن هنا نجد أن مغفرة الله تسع كل شىء عدا الإشراك به كما يقرر الكتاب الكريم في قول الله تبارك وتعالى :

---

(١) الحديد ١ - ٤ (٢) الحشر ٢٢ - ٢٤ (٣) الإخلاص

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[١].

والمصدر الأول الذى يرتكز عليه الإيمان بالله هو العقل، منحة الله إلى الإنسان، والتي مُيزَ بها عن غيره من المخلوقات الأخرى وهيأته لتحمل الأمانة التى أشفقت منها السموات والأرض والجبال، فالإيمان بالله - فيما يؤخذ من القرآن الكريم - يستلزمه المنطق السليم والنظر الصائب، ولا يحتاج إلى دليل خارج عن النفس ، وما يحيط بالإنسان من مخلوقات تتجلى فيها عظمة الخالق وقدرته الشاملة وتصرفه المطلق تبعا لإرادته النافذة وحكمته السامية.

ولهذا لا نجد فى القرآن آية تناقش المؤمنين في أسباب إيمانهم بالله، أو تحاول التدليل على صحة عقيدتهم بطريقة مباشرة، فكل ظاهرة من ظواهد الكون آية للمؤمن بربه يزداد بها إيمانه ولا يؤسس عليها، وتقوى بها عقيدته ولا تبدأ عندها. نقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء، ما يمسكهن إلا الله، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٢].

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً، إن فى ذلك

---

(١) النساء ١١٦ (٢) النحل ٧٩

لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[2] .

﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[3] .

فالمتحدث عنهم فى هذه الآيات هم الذين كفروا بالله. ولم يصيخوا إلى صوت العقل ونداء الواقع، ولم يحاولوا فهم الكون الذى يعيشون فيه وينعمون بما وهبهم الله من فضل، وذكر المؤمنين فى نهاية كل آية إنما هو لبيان انتفاعهم بما تنطق به من مظاهر قدرة الله ورحمته وتصرفه المطلق في تثبيت عقيدتهم وتجديد إيمانهم بخالقهم، وهذا هو نفس المعنى الذي نفهمه من قوله تعالى :

﴿ وذكر فإن الذكرىٰ تنفع المؤمنين ﴾[4] .

ومن قوله جل شأنه :

﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[5] .

أما أسلوب القرآن مع الكافرين فيختلف عن ذلك، إذ يناقشهم فى أسباب كفرهم، ويقيم الدليل تلو الدليل على خطأ الطريق الذى

---

(١) االنمل ٨٦ (٢) الروم ٣٧ (٣) الزمر ٥٢ (٤) الذاريات ٥٥ (٥) الاعراف ٢

سلكوه وعلى مخالفته لما تقضى به الفطرة ويهدي إليه العقل، ومن ذلك قوله عن الذين أنكروا وجود الله.

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون﴾[1].

ويوجه إليهم الحديث الذى ينطق بالدليل الواضح فيقول:

﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[2].

﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[3].

﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾[4].

﴿أفرأيتم النار التى تورون، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾[5].

وكما تحدث القرآن عن الذين أنكروا وجود الله وتحدث إليهم، فقد تحدث عن هؤلاء الذين أنكروا وحدانيته فقال:

﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا﴾[6].

أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون، لو كان فيهما آلهة إلا الله

---

(١) الطور ٣٥، ٣٦ (٢) الواقعة ٥٨، ٥٩ (٣) الواقعة ٦٣، ٦٤
(٤) الواقعة ٦٨، ٦٩ (٥) الواقعة ٧١، ٧٢ (٦) الإسراء ٤٢

لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[1] .

﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾[2] .

ويوجه الحديث إلى من تركوا عبادة الله إلى عبادة غيره فيقول :

﴿ والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾[3] .

ويقول :

﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾[4] .

ثم يتحدث عنهم فيبرز أن ما فعلوه لا يتفق والمنطق السليم الذى يقتضيه العقل فيقول :

﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشوراً ﴾[5] .

فإذا استقر الإيمان بالله على النحو الصحيح المنبعث عن العقل السليم ،

---

(١) الأنبياء ٢١ ، ٢٢ (٢) المؤمنون ٩١ (٣) الأعراف ١٩٧ ، ١٩٨

(٤) فاطر ٤٠ (٥) الفرقان ٣

فقد مهد الطريق للإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم، لأنه سبحانه وتعالى أيد كل واحد منهم بما يؤكد صدقه، وتصديق الرسول ﷺ يقود إلى الإيمان بما يبلغ من كتاب أوحى إليه.

وبما يخبر من أمور لا تقع تحت الحس، ولا مصدر للعلم بها إلا خبر المعصوم، والإيمان بالملائكة من هذا القبيل.

*****

الإيمان بالملائكة

والذى يؤخذ من القرآن بخصوص الملائكة :

١ ـ أنهم خلق من خلق الله يختلفون عن الإنسان فى طبيعتهم، وذلك عندما يقرر أن من سنة الله أن يكون الرسول والمرسل إليهم من طبيعة واحدة، قال الكفار فى جدلهم مع الرسول ﷺ :

﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾[١]. فكان من جملة الرد عليهم قوله تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[٢]. وقال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[٣].

٢ ـ والملائكة مطيعون لله دائما بخلاف الإنسان، يقول الله تعالى عنهم :

﴿ عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾[٤]. ويقول سبحانه :

﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[٥].

---

(١) الأنعام ٨ (٢) الأنعام ٩ (٣) الإسراء ٩٥

(٤) الأنبياء ٢٦ ـ ٢٨ (٥) النحل ٤٩ ، ٥٠

٣ ـ والملائكة هم رسل الله إلى من يشاء من عباده :

﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾[١] . ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء، إنه عليٌّ حكيم﴾[٢] .

وعن طريق الوحى الذى يحمله الملك تلقى الأنبياء والرسل ما شاء الله أن ينعم به على عباده من كتبه المقدسة وشرائعة الهادية وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾[٣] .

ونقرأ بالنسبة لوحى القرآن نفسه إلى الرسول محمدﷺ :

﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾[٤] .

ونقرأ" ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾[٥] .

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين﴾[٦] .

---

(١) فاطر ١ (٢) الشورى ٥١ (٣) النحل ٢

(٤) البقرة ٩٧ (٥) النحل ١٠٢ (٦) الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٤

وكما أن الملائكة كانت رسل الله إلى أنبيائه فيما يتعلق بالوحى وتعاليم الأديان. فقد كانوا رسله كذلك بالبشرى إلى بعض خلقه. نقرأ فى قصة رسول الله زكريا عليه السلام :

﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾[1].

ونقرأ فى قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾[2].

﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[3].

وجاء فى قصة مريم : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[4].

وكان هذا تمهيدا لما جاء بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾[5].

وإذا كانت البشرى لزكريا وابراهيم ـ عليهما السلام ـ قد حملت تحقيق أمنية كان من البعيد أن تكون لحالة كل منهما ، فإن البشرى التى

---

(١) آل عمران ٣٩ (٢) هود ٦٩ (٣) هود ٧١
(٤) آل عمران ٤٢ (٥) آل عمران ٤٥، ٤٦

حملتها الملائكة إلى مريم كانت تتعلق بتحقيق شيء مستحيل فى حكم العادة.

٤ - ومن الملائكة من وكله الله يقبض أرواح من يريد إنهاء حياته في هذه الدنيا. ﴿ وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ﴾(١).

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ﴾(٢).

٥ - ويؤخذ من القرآن أن مهمتهم ليست محصورة فى قبض الأرواح وإنهاء حياة الإنسان، وإنما هم مأذونون في تحية الصالحين من عباد الله وتبشيرهم - عند الموت - بما ينتظرهم من جزاء حسن.

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾(٣).

ومأذونون كذلك فى توجيه اللوم والتوبيخ إلى من ظلم نفسه ولم يحاول الانتفاع بنعمة الله عليه.﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾(٤).

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾(٥).

---

(١) الأنعام ٦١ (٢) السجدة ١١ (٣) النحل ٣٢
(٤) النساء ٩٧ (٥) الأنعام ٩٣

وليس هذا فحسب ، وإنما هم مأذنون كذلك بضرب وجوه الكفار وأدبارهم. يقول القرآن الكريم :﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[1].

ويقول :﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[2].

وبعد أن يفصل الله بين عباده ، وينعم أهل الجنة بالجنة ويشقى أهل النار بالنار ، نجد خزنة الجنة من الملائكة يستقبلون أهلها بالبشرى الطيبة :

﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[3] . ثم يكررون التحية بعد أن يستقر بهم المقام ويدخلون عليهم من كل باب ، ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[4].

وأما بالنسبة لأهل الناس فإن خزنتها ـ وهم ملائكة غلاظ شداد يلقون في وجوههم بما يزيد من حسرتهم ويضاعف من همومهم ، يقولون لهم :﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾[5].

ويقول القرآن الكريم في وصف جهنم ﴿ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ ﴾[6].

---

(١) الأنفال ٥٠ (٢) محمد ٢٧ (٣) الزمر ٧٣
(٤) الرعد ٢٤ (٥) الزمر ٧١ (٦) الملك ٨

٦ ـ والملائكة جنود لله ينصر بهم من يشاء من عباده وقد أخبرنا الكتاب الكريم أن الله أمد المسلمين فى بعض حروبهم بالملائكة استجابة لاستغاثتهم به وذلك قوله تعالى:

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ من الملائكة مردفين ﴾(١).

وأخبرنا القرآن كذلك أن رسول الله محمداً ﷺ هدأ من روع أصحابه بقوله لهم: ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾(٢).

وينجز الله وعده ويمد المؤمنين بملائكته ويسجل ذلك فى كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم، فثبتوا الذين آمنوا، سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾(٣).

وكما أخبرنا القرآن عن هذا النوع من نصر الله لعباده المتقين بواسطة جنوده من الملائكة، وأخبرنا عن نوع آخر من أنواع نصره لهم، وذلك حين قص علينا ما كان من رسل الله مع نبيه لوط عليه السلام حين ضاق ذرعاً بقومه وبتطاولهم عليه وقال فى أنة حزينة: ﴿ لو أن لى بكم قوة أو

---

(١) الأنفال ٩ (٢) آل عمران ١٢٤، ١٢٥ (٣) الأنفال ١٢

آوى إلى ركن شديد ﴾[1] فيأتيه النصر عن طريق الملائكة إذ ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب، فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[2].

تلك هى الصورة التى يعطيها القرآن الكريم للملائكة، والتى يجب على المؤمن أن يصدق بجزئياتها ليتم إيمانه المطلوب والممارسون لكتب التفسير يعرفون ما دار من جدل ونقاش حول موضوع الملائكة - فيما يتصل بطبيعتهم وفى تحديد حقيقة الوظائف التى يقومون بها - والذى نميل إليه أن الإيمان بالنصوص الواردة كما هى واجب على المؤمن. وأن البحث عما وراء الألفاظ - مما لا يمكن الوصول إليه عن طريق الإدراك البشرى، وموضوع الملائكة من هذا القبيل - مضيعة للوقت، ومقطوع بعدم جدواه. وكل مسلم لا يشك فى أن كل ماجاء فى القرآن حق لا ريب فيه، ومما يريح النفس أن نصوص القرآن لا تتعارض مع ما قطع العلم به وأثبته بالبرهان الذى لا يقبل الجدل. وأن العلماء فى كل ناحية من نواحى المعرفة يقررون أن ما وصل إليه العلم بالفعل لا يقارن بما بقى خافيا علينا. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[3].

---

(١) هود ٨٠ (٢) هود ٨١ - ٨٣ (٣) الإسراء ٨٥

الإيمان باليوم الآخر

أما الإيمان باليوم الآخر، وما يكون فيه من تطبيق عملي شامل للعدالة الإلهية، فهو متوقف على الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى عادل وحكيم، والآيات التي تحدثت عن وجوب مجيء هذا اليوم تستند في إثبات ما تتحدث عنه على أن الخالق حكيم ويستحيل عليه العبث، وعادل ويستحيل عليه الظلم، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾(٢)

ويقول جل شأنه:

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواء محياهم ومماتهم، ساء مايحكمون ﴾(٣).

ثم يقول:

---

(١) المؤمنون ١١٥، ١١٦ (٢) ص ٢٧، ٢٨ (٣) الجاثية ٢١

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ﴾[1] .

وكما أن الإيمان باليوم الآخر يتوقف على الإيمان بحكمة الله وعدله فهو يتوقف كذلك على الإيمان بقدرته الشاملة ، لأنه يستلزم البعث لكل من مات من بني آدم ، والبعث الذى أنكره الدهريون أساس الإيمان به، هو الإيمان بالقدرة الإلهية عليه .

والآيات التى تحدثت عن إمكانه تستند دائما إلى القدرة وأن الذي خلق الإنسان أولاً لا يعيه أن يعيد خلقه .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا ، أئنا لمبعثون خلقًا جديداً ، قل كونوا حجارةً أو حديداً أو خلقًا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ﴾[2] .

ويقول سبحانه :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ، ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام وهى رميم، قُل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ﴾[3] .

ويقول جل شأنه :

---

(١) القلم ٣٥ ، ٣٦ (٢) الإسراء ٤٩ ـ ٥١ (٣) يس ٧٧ ـ ٧٩

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾[1].

ويعبر القرآن عن منكرى البعث بأنهم كفار فيقول :

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم ﴾[2].

والإيمان فى أى عنصر من عناصره يعود على المرء نفسه بالخير لأن الإيمان بالله ـ وهو مستند إلى العقل كما أسلفنا القول ـ يؤكد إنسانيته ، ويحرره من العبودية لغير الله ومن الخضوع لمخلوق مثله أو أقل منه ، ويبرهن على انتفاعه بما وهبه الله من قوة الإدراك والفهم ، وعلى استحقاقه لأن يكون خليفة الله فى الأرض يعمرها ويشيع الخير والسلام فيها .

والإيمان برسل الله وكتبه ، وما أخبروا به من ملكوت الله وما سيكون فى اليوم الآخر . يقوده إلى الخير ، ويمهد أمامه طريق السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة . وهذا هو منطق القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم ، وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما ﴾[3].

---

(١) ق ١٥ (٢) الرعد ٥ (٣) النساء ١٧٠

وفى قوله سبحانه :

﴿ وإذ تأذن ربكم ، لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[1] .

وفى قوله عز وجل :

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنىٌّ حميد ﴾[2] .

وهو نفس ما جاء فى الكتاب الكريم على لسان نبى الله سلميان عليه السلام حين قال :

﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنىٌّ كريم ﴾[3] .

*****

---

(١) ابراهيم ٧ (٢) لقمان ١٢ (٣) النمل ٤٠

صفات المؤمنين

والقول بأن الإيمان بعناصره الكاملة يقود الإنسان إلى الخير، ويمهد أمامه طريق السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة يسلمنا إلى البحث عن صفات المؤمنين كما يصورها القرآن الكريم.

والصفات التى يتطلبها القرآن في المؤمن كثيرة، وتشمل كل ما يلزم لصلاح العبد كفرد، وما يلزم لصلاحه كعضو فى جماعة. كما تشمل كل مايلزم لإصلاح حال الجماعة المؤمنة فى صلاتها الداخلية والخارجية. وليس هذا بغريب، فالقرآن حين يتحدث إلى الجماعة المؤمنة، يناديها بعنوان إيمانها ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾. هذا العنوان الذى يميزها عما عداها من الجماعات التى يربطها ببنى الإنسان سبب، والذى يفرض عليها من الواجبات ما يحقق خلافتها فى الأرض.

وقد جاءت هذه الصفات التى لا يتحقق الإيمان بدونها منبثة فى آيات الكتاب الكريم التى نزلت بعد أن تكون لأتباع محمد ﷺ كيان الجماعة والدولة.

• • •

نادى الله سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ بقوله الكريم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تسعا وثمانين مرة فى القرآن .

وفيها مجتمعة نجد التشريع الحكيم الذى يؤدى اتباعه إلى تثبيت أركان الجماعة وتقوية بنيانها كأفراد يصلحون من أنفسهم باتباع هدى الله وكجماعة تحاول أن تسود لتقيم العدل وتنشر الإحسان والسلام فى الأرض.

وبتتبع الآيات التى بدأت بالنداء المذكور وجد أنها كلها ـ دون استثناء ـ نزلت بعد الهجرة، وهاك ثبت بالسور التى وردت فيها وعددها فى كل سورة وأرقام الآيات:

اسم السورة	عدد المرات	أرقام الآيات
البقرة	١١	١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣, ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٣
آل عمران	٧	١٠٠، ١٠٢، ١١٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦، ٢٠٠
النساء	٩	١٩، ٢٩، ٤٣، ٥٩، ٧١، ٩٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٤
المائدة	١٦	١، ٢, ٦، ٨، ١١، ٣٥، ٥١، ٥٤، ٥٧، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦

اسم السورة	عدد المرات	أرقام الآيات
الأنفال .	٦	١٥، ٢٠، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٤٥
التوبة	٦	٢٣، ٢٨، ٣٤، ٣٨، ١١٩، ١٢٣
الحج	١	٧٧
النور	٣	٢١، ٢٧، ٥٨
الأحزاب	٧	٩، ٤١، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٦٩، ٧٠
محمد	٢	٧، ٣٢
الحجرات	٥	١، ٢، ٦، ١١، ١٣
الحديد	١	٢٨
المجادلة	٣	٩، ١١، ١٢
الحشر	١	١٨
الممتحنة	٣	١، ١٠، ١٣
الصف	٣	٢، ١٠، ١٤
الجمعة	١	٩
المنافقون	١	٩
التغابن	١	١٤
التحريم	٢	٦، ٨

وكل السور المذكورة نزلت بعد هجرت الرسول ﷺ إلى المدينة وبعد أن بدأت النواة الأولى للدولة الإسلامية بالجماعة الموحدة من الأنصار والمهاجرين بقيادة النبي ﷺ .

والمتتبع لأسلوب القرآن فى هذا المجال يمكنه أن يقول :

إن هذه الصفات - وإن ذكرت فى آيات كثيرة وفى سور متفرقة - قد جمعت فى مواضع معدودة بحيث يمكننا أن نعتبرها الأساس في حصر هذه الصفات ، إذ كل ماجاء فى الآيات الأخرى يندرج تحت واحدة منها أو يمثل نوعا من أنواع تطبيقها .

هذه المواضع نجدها فى قول الله تعالى :

أ - ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١] .

ب - ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[٢] .

ج - ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم

---

(١) الأنفال ٢ - ٤ (٢) التوبة ٧١

حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[1] .

د ـ ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾[2] .

فالصفات التي يجب أن تتوفر فى المؤمن الحقيقي ـ طبقا لهذه الآيات هى :

١ ـ خوف الله ووجل القلب عند ذكر الله سبحانه وتعالى .

٢ ـ زيادة الإيمان عندما تتلى آيات الله .

٣ ـ التوكل على الله سبحانه .

٤ ـ إقامة الصلاة .

٥ ـ إيتاء الزكاة .

٦ ـ ولاية المؤمنين .

٧ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٨ ـ طاعة الله ورسوله .

٩ ـ الإعراض عن اللغو .

١٠ ـ العفة .

---

(١) المؤمنون ١ ـ ١١ (٢) الحجرات ١٥

١١ ـ مراعاة الأمانة والعهد.

١٢ ـ رسوخ العقيدة بحيث لا يعتريها شك.

١٣ ـ الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس.

يضاف إلى ذلك صفات مصدرها آيات أخر وجهت إلى المؤمنين الأمر بفعل شيء أو النهى عن فعل شىء ومنها:

١٤ ـ المسالمة البناءة وعدم الاعتداء.

١٥ ـ العدل فى جميع أبعاده.

١٦ ـ الإخلاص فى العمل.

١٧ ـ الاعتراف بالجميل.

١٨ ـ قوة الإرادة وضبط النفس.

وسنحاول ـ إن شاء الله ـ تكوين سورة متكاملة لكل صفة منها.

******

الخوف من الله ووجل القلب
عند ذكره سبحانه

يقول الراغب الأصفهانى فى (المفردات فى غريب القرآن)
فى مادة «خوف»
«الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة».

وهذا المعنى يوجد فى الوجل، والخشية، والإشفاق مع إضافة فى تعريف كل بما يميزه عن الآخر [١].

ويقرر القرآن الكريم أن الخوف من مستتبعات الإيمان، فالمؤمن يخاف الله، ويخاف عذابه، ويخاف اليوم الآخر لمظنة ما قد يظهر فيه من تقصيره فى الطاعة، أو لما يبدو فيه ويبرز من السيئات التى اقترفها فى حياته.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إنما ذٰلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [٢].

---

(١) الوجل استشعار الخوف الخشية خوف يشوبه تنظيم الإشفاق عناية مختلطة بخوف (مفردات الراغب) .

(٢) آل عمران ١٧٥

ويوضح أن الخوف من سوء العاقبة أحد أوصاف الذين يتمتعون بالعقل السليم، ويندرجون فى أولى الألباب، وذلك إذ يقول:

﴿ .. إنما يتذكر أولى الألباب، الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾[1].

ويبين القرآن أن الذى ينتفع بدعوة الرسول ﷺ هم الذين يخافون نتائج أعمالهم واليوم الذى يحاسبون فيه عليها، يقول سبحانه:

﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع، لعلهم يتقون ﴾[2].

ويقول جل شأنه فى صدد حديثه عن الساعة:

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾[3].

ويبين القرآن ـ كذلك ـ أن الذين ينتفعون بما سبق فيه من قصص عن الأمم الغابرة وما كان من شأن الله سبحانه وتعالى معهم بسبب ما اقترفوا من سيئات، إنما هم الذين يخافون عذاب الآخرة يقول الله تبارك وتعالى بعد أن قص من أنباء القرى ما قص:

﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾[4].

---

(١) الرعد ١٩ ـ ٢١ (٢) الأنعام ٥١ (٣) النازعات ٤٥ (٤) هود ١٠٣

ويقول بعد أن قص علينا شأن فرعون ونهايته:

﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[1].

وبعد أن قص علينا ما حدث لقوم لوط وقريتهم يقول جل شأنه:

﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾[2].

والخوف من الله يقوى دعائم الإيمان، فيصبح قوة دافعة للعمل، مجددة للنشاط، يقول الله سبحانه:

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون، والذين هم بربهم لا يشركون، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾[3].

وليس من شك في أن الجهاد في سبيل الله يحتل الصدارة في قائمة الخيرات التي يسارع إليها المؤمنون الذين يخشون ربهم ويخافون وعيده، وعن طريقه يكتب الله لهم النصر على أعدائهم، ويمكن لهم في الأرض، فليس غريبا إذاً ما نجد في القرآن من أن وعد الله لرسله بإهلاك أعدائهم وتمكين الأمر لهم ولأتباعهم مشروط بأن يكونوا ممن يخافون الله ويخافون وعيده، وذلك حيث يقول الله عز وجل:

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في

(١) النازعات ٢٦ (٢) الذاريات ٣٧ (٣) المؤمنون ٥٧ - ٦١

ملتنا، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾[1].

ومن هنا كان حديث القرآن إلى المؤمنين وحضهم على قتال من اعتدوا عليهم. وتوجيهه لهم ألا يخشوا عدوهم فيفت ذلك في عضدهم ويبدد من قوتهم. وإنما عليهم - بحكم إيمانهم - أن يخشوا الله ويجاهدوا في سبيله. وذلك طريق النصر لهم والهزيمة لأعدائهم. يقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدأوكم أول مرة، أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾[2].

ومصدر الخوف من الله سبحانه، هو المعرفة الحقة الكاملة بجلاله وعظمته، والاعتقاد الذى لا يشوبه ريب فى أنه غنى عن العالمين وأنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل، ومن هنا كان خوف العارفين بالله من الله أقوى وأعمق من خوف عامة الخلق، ذلك لأنه كلما ازدادت معرفة الإنسان بالله، كلما وضحت له عيوب نفسه وأدرك مدى تقصيره فى

---

(١) ابراهيم ١٣، ١٤ (٢) التوبة ١٣ - ١٥

حق خالقه، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان :

[والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية](*)

(*) روى الإمام البخارى فى كتاب النكاح: حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا جعفر بن محمد، أخبرنا حميد بن أبى حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ وقد غُفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

وبالرغم من صلته بربه ومكانته عنده فقد طلب إليه أن يقول :

﴿ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾(١) .

ويتلاقى ذلك مع مانجده فى القرآن من قصر خشية الله على العلماء من عباده، وذلك حيث يقول سبحانه:﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(٢) .

---

(١) الأنعام ١٥ ، يونس ١٥ ، الزمر ١٣ (٢) فاطر ٢٨

والخوف من الله نوع فريد فى باب الخوف إذ الخوف من غيره يدفع صاحبه إما إلى الهرب إلى ملاذ يعوذ به وملجأ يحميه من مصدر الخوف، وإما إلى المخاطرة فى محاولة التعرف عليه وعلى سره ليتغلب عليه أو يأمن جانبه، أما الخوف من الله فإنه يدفع العبد دائما إلى أن يهرع إليه ويتقرب منه أكثر ما يكون القرب بالنسبة إليه إذ لا مجال للتغلب عليه سبحانه وهو الغالب على أمره ولا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض، ولا وجود لما يحمي الإنسان من بطش الله إذا أراد، إذ لا ملجأ منه إلا إليه وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾[1].

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن معرفة الله الحقة، والتى تورث الخوف منه سبحانه، لم تبن على مشاهدة ورؤية، فالله جل جلاله لا تدركه الأبصار، وإنما هى ثمرة للإيمان بالغيب كما أمر الله، وفى الحدود التى رسمها فى كتابه، ومن هنا كانت قيمة خشيته، وما أعد الله لأصحابها من أجر مما نجده فى قول الله سبحانه:

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب، فبشره، بمغفرة وأجر كريم ﴾[2].

وقوله جل شأنه:

---

(١) الذاريات ٥٠ (٢) يس ١١

﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير﴾[1].

وقوله عز وجل:

﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾[2].

*****

---

(١) الملك ١٢ (٢) ق ٣١-٣٣

زيادة الإيمان عند سماع آيات الله

ومن أوصاف المؤمنين التى ذكرها القرآن الكريم، أنهم إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم يزيد إيمانهم، ولا تكون الزيادة فى الشىء إلا إذا تحقق وجوده أولا، فكذلك إيمان المرء لا يزيد إلا إذا كان تصديقه بالله قد بلغ حد اليقين، وصار يثمر بممارسة الطاعات والبعد عن المعاصى، وأصبح بحيث لا يعتريه شك أو ريبة، ومن هنا كانت تلاوة الآيات وسماعها تقوية لهذا اليقين وتجديداً له.

وإذا كانت الآية التي معنا: ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾[1]. تقرر زيادة الإيمان عند سماع آيات الله، ففى القرآن الكريم آيات أخرى تتحدث عن زيادة الإيمان لأكثر من سبب فنحن نقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿ الذين قال لهم الناس. إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[2].

فهؤلاء الذين لم تفزعهم الأخبار عن العدو المتربص لهم واعتمدوا على

---

(١) الأنفال ٢ (٢) آل عمران ١٧٣

الله لقوة ثقتهم به، وتوكلوا عليه بعد التهيئة والاستعداد الواجب زاد إيمانهم بهذا الثبات وتجدد شبابه.

ونقرأ قوله عز وجل:

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾(١).

وإذا كانت الآية السابقة تقرر ثبات المؤمنين على إيمانهم رغم سماعهم الأخبار المزعجة عن العدو المتجمع للهجوم عليهم، فإن الآية التى معنا تقرر ثباتهم على الإيمان رغم رؤيتهم فعلا للأحزاب الذين أحاطوا بهم، وفى الظروف التى صورها القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾(٢).

ونقرأ قول الله جل شأنه:

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض، وكان الله عليما حكيما ﴾(٣).

وبالرجوع إلى أسباب نزول سورة الفتح وما سبقها من بيعة الرضوان وصلح الحديبية وما أحدث في نفوس كثير من المؤمنين مع محاولة فهم

---

(١) الأحزاب ٢٢ (٢) الأحزاب ١٠، ١١ (٣) الفتح ٤

قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ﴾ .

فى ضوء ذلك كله . يظهر لنا بوضوح سر التعبير بقوله تعالى :

﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ .

ولسنا بحاجة - بعد هذا التعبير - إلى الجدل الذى دار ومازال يدور حول زيادة الإيمان ونقصه ، فليس بعد قول الله تبارك وتعالى مجال لبحث ، وقد صرح القرآن الكريم بزيادة الإيمان ، بل قال :

﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾

والمتتبع لآيات القرآن الكريم التى تتحدث عن العقيدة فى طرفيها - الإيمان والكفر - يجد أنها تقرر قبولها للزيادة فيهما وكما قرأنا الآيات التى تقرر زيادة الإيمان فإننا نقرأ كذلك آيات أخرى تقرر زيادة الكفر يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الذين آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ﴾[1] .

ويقول الله جل شأنه :

﴿ إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما

---

(١) النساء ١٣٧

ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين ﴾[2].

وما كان للإثم أن يزيد لو أن العقيدة فى طرفها الأسفل لا تزيد.

ومن الآيات ما يقرر أن بعض الأسباب يحدث أثراً مزدوجاً فى عقيدة الناس. فيزيد فى إيمان المؤمنين. ويزيد فى الوقت نفسه فى رجس الكافرين. يقول الله سبحانه:

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون ﴾[3].

ويقول جل شأنه:

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾[4].

على أن فى الكتاب الكريم آيات أخرى تقرر صراحة أن قوة العقيدة فى نفوس المؤمنين ليست فى مستوى واحد، إذ هم يختلفون فى استعدادهم

(١) التوبة ٣٧ (٢) آل عمران ١٧٨ (٣) التوبة ١٢٤، ١٢٥ (٤) الإسراء ٨٢

للتضحية فى سبيل عقيدتهم عندما تدعوا الحاجة إليها ولقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا التفاوت فى عهد الإسلام الأول ومع وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم يقول القرآن عن الأحداث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك فى الحق بعد ماتبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾[1].

ويتحدث القرآن عن غزوة أحد فيقص علينا ما كان من اختلاف فى اتجاهات المقاتلين من المؤمنين، وفى أهدافهم من المعركة الدائرة فيقول:

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين ﴾[2].

ويتحدث القرآن كذلك عن غزوة تبوك وملابساتها فيقول فيما يقول:

﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾[3].

---

(١) الأنفال ٥، ٦ (٢) آل عمران ١٥٢ (٣) التوبة ١١٧، ١١٨

ويفرق القرآن بين هؤلاء الذين ضحوا فى سبيل عقيدتهم حين كان الإسلام وليدا تتنازعه الأعاصير، وتتكالب عليه عوامل الشر وأولئك الذين فعلوا ذلك ولكن بعد أن اشتد ساعد الدين وصارت له الكلمة النافذة والسلطة الشاملة وذلك فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾[1].

ونجد القرآن يضع قانونا عاما لتفضيل بعض المؤمنين على بعض تبعا لقوة الباعث التى يتصرف المؤمن نتيجة لها فيقول:

﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجات منه ومغفرة ورحمة، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[2].

ثم نجد القرآن الكريم يستنكر أن يسوى المؤمن الصالح بالمفسد فى الأرض، أو يسوى التقى بالفاجر وذلك حين يقول:

---

(١) الحديد ١٠ (٢) النساء ٩٥، ٩٦

﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾[1].

وحين يقول:

﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم، ساء مايحكمون﴾[2].

ولا شك أن جماعة المؤمنين تضم هؤلاء وأولئك، ولا شك أيضا فى أن إيمان الأتقياء أقوى من إيمان مجترحى السيئات.

****

---

(١) سورة ص ٢٨ (٢) الجاثية ٢١

التوكل على الله

والتوكل على الله من صفات المؤمنين التى نص عليها فى قوله تعالى:

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾[1].

وفى كثير من آيات الكتاب الكريم نجد التوكل على الله من واجبات المؤمن التى أمر بتحقيقها فى صيغة واضحة صريحة، وذلك حيث تقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2].

والتأمل فى الآيات التى ذيلت بهذا الأمر الإلهى يستطيع أن يستخلص منها - متعاونة - أن معنى التوكل على الله فى لسان القرآن هو الثقة التامة فى حكمته سبحانه وتعالى، واليقين الصادق بقدرته الشاملة وإرادته النافذة وعلمه المحيط. وأن المؤمن به فى رعايته دائما، ومحفوف بعنايته فى كل أمر من أموره، ومن هنا كان عليه الرضا التام فى كل أحواله بما يريده الله له ما دام لم يقصر فى واجب ولم يقارف عملا يعصى الله به.

ويؤخذ من الآيات الكريمة أن التوكل على الله يؤتى ثمرته، سواء

---

(١) الأنفال ٢ (٢) آل عمران ١٢٢، ١٦٠

أكان للمرء وضع إيجابى فى الموقف أم لم يكن، وسواء أكان مدركا لحقيقة الأمر أم لا علم له بها، فعناية الله تحف بعباده، وتهيىء لهم طريق الخلاص دون علم منهم - في كثير من الأحيان - بما يحيط بهم من أخطار، وما يدبر لهم من مكائد، ويؤيد ذلك قول الله تبارك وتعالى فى معرض الحديث عن غزوة أحد:

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا، والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١).

وقوله جل شأنه:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم، واتقوا الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٢).

وفى قوله عز وجل فى شأن المنافقين وما كانوا يرتكبون من كبائر ويحيكون من مؤامرات ضد رسول الله ﷺ:

﴿ ويقولون طاعة، فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول، والله يكتب ما يبيتون، فأعرض عنهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا ﴾(٣).

---

(١) آل عمران ١٢١، ١٢٢ (٢) المائدة ١١ (٣) النساء ٨١

فالتدبير بليل، والمؤامرات في الظلام، والرسول لا يعرف عنها شيئا، إلا ما جاءه الوحي به، وهو دائما فى رعاية الله وعنايته فليظل على ثقته الكامله بربه وليواصل أداء رسالته، ولا يشغل نفسه بهؤلاء وأمثالهم.

والتوكل على الله لا يتعارض مع الإيمان بالصلة بين الأسباب والمسببات التى أبدع الله العالم وجعلها ضمن قوانينه وسننه وإنما التوكل إيمان عميق بهذه الصلة، فالأمور التى يجب على المؤمن أن يكون له فيها تصرف لا يتحقق التوكل بالنسبة إليها إلا إذا قام الإنسان بما يجب عليه أولا، ثم يدع النتيجة لله سبحانه ويفوض الأمر إليه، ومما يوضح ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم إذ لا سبيل إلى الشك فى أن كلاً منهم قد قام بواجب التبليغ على خير وجه، وكل منهم توكل على ربه مع أداء واجبه، ونقرأ فى قصة نوح عليه السلام قول الله تبارك وتعالى:

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾[1].

ونقرأ فى قصة إبراهيم عليه السلام ما حكاه الله من قوله:

---

(١) يونس ٧١

﴿ ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ﴾[1] .

وقال هود عليه السلام لقومه :

﴿ إني توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ﴾[2] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه :

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[3] .

وأما خاتم الأنبياء محمد ﷺ - وهو الذى حرص على إسلام قومه ونجاتهم إلى حد أن خاطبه الله بقوله سبحانه :

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[4] .

فقد قال له ربه بالنسبة لقومه :

﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[5] .

---

(١) الممتحنة ٤ (٢) هود ٥٦ (٣) الأعراف ٨٩

(٤) الكهف ٦ (٥) التوبة ١٢٩

وقال له أيضا.

﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلواْ عليهم الذى أوحينا إليك، وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[١].

وطلب منه أن يقول للمختلفين فى شأن الألوهية:

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله، ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٢].

وطلب إليه أن يعلنها صريحة مدوية:

﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾[٣].

وهناك آيات أخرى من الكتاب الكريم تؤيد وجوب القيام بالعمل اللازم قبل التوكل على الواحد الأحد. فالله يقول لرسوله ﷺ:

﴿ وشاورهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين ﴾[٤].

فالتوكل مسبوق بالعزم والتصميم، ولا يكون ذلك إلا بعد تقليب الأمر على وجوهه ومحاولته الوصول إلى أفضل الطرق لحل المشكلة التى تواجه الإنسان. ويقول سبحانه:

---

(١) الرعد ٣٠ (٢) الشورى ١٠

(٣) الملك ٢٩ (٤) آل عمران ١٥٩

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، نعم أجر العاملين ﴾[1] .

ثم يصف هؤلاء العاملين فيقول :

﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[2] .

ويقول جل شأنه :

﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[3] .

والذى يدخره العبد عند الله هو العمل الصالح .

ويقول الله عز وجل لرسوله ﷺ :

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم ﴾[4] .

ويقول كذلك له :

﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾[5] .

---

(١) العنكبوت ٥٨ (٢) العنكبوت ٥٩ (٣) الشورى ٣٦

(٤) الشعراء ٢١٤ - ٢١٧ (٥) الأحزاب ١ - ٣

وإذا كان القرآن يقول :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[1] .

فإنه بين بوضوح أن نصر الله لا يأتي عفواً ودون عمل ، وإنما هو مشروط بأن يقوم المؤمنون بواجبهم نحو ربهم وذلك قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[2]

وقوله عز وجل :

﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾[3] .

وكل هذا يجمعه تعبير قرآنى معجز فى إيجازه . وذلك قوله تعالى :

﴿ ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[4] .

فقد أمر الله عز وجل بالعبادة قبل التوكل ، والعبادة فى لغة القرآن الكريم عمل متقن ، وهدف سليم مقبول يتعاونان معاً على تحقيق خلافة الإنسان عن الله فى الأرض .

وإذا كان التوكل مشتقا من الوكالة فيقال : وكل أمره إلى فلان أى فوضه إليه واعتمد عليه فيه ، فقد بين القرآن الكريم أن الملجأ الذى لا ملجأ غيره ، والوكيل الذى يعتمد عليه ويوثق فيه تمام الثقة ، إنما هو الله

---

(١) آل عمران ١٦٠ (٢) محمد ٧ (٣) الحج ٤٠ (٤) هود ١٢٣

سبحانه وأن التوكل الحقيقى لا يكون إلا عليه وذلك حين نقرأ ما حكاه القرآن عن رسل الله حين قالوا :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[1] .

وحين نقرأ ما طلب من الرسول ﷺ أن يعلنه :

﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادنى برحمة ، هل هن ممسكات رحمته ؟ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[2] .

فالأساس فى التوكل إذاً هو المعرفة التامة بالله سبحانه ، والإيمان بصفاته من قدرة وإرادة وعلم وحكمة . وهو الإيمان العميق بانتهاء الأمور كلها إليه . وصدورها عن مشيئته . ومن هنا كان المؤمن المتوكل على الله فى مأمن من الشيطان وأحابيله . وصدق الله حيث يقول :

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[3] .

*****

---

(١) إبراهيم ١٢ (٢) الزمر ٣٨ (٣) النحل ٩٨ ، ٩٩

إقامة الصلاة

ويؤخذ من القرآن الكريم أن الصلاة كانت ركنًا هامًا فى كل ديانة من ديانات الله التى تحدث عنها، وأن كل رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد اهتم بها. فإبراهيم خليل الله يناجى ربه فيقول:

﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة...﴾[1].

ويبتهل إلى الله فى ضراعة قائلا:

﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى..﴾[2].

ويثنى الله على رسوله إسماعيل عليه السلام بأنه:

﴿كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة..﴾[3].

ويقص علينا الكتاب الكريم بعضا من قصص رسله: إبراهيم، ولوط، واسحاق، ويعقوب عليهم صلوات الله وسلامه ثم يقول:

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وأوحينا إليهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾[4]

ويخبرنا القرآن كذلك أن أول ما تلقى موسى عليه السلام عن ربه عز

---

(١) ابراهيم ٣٧ (٢) ابراهيم ٤٠ (٣) مريم ٥٥ (٤) الأنبياء ٧٣

وجل :

﴿ وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾[1] .

ويوحى الله إليه وأخيه بعد ذلك :

﴿ أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين ﴾[2] .

ويحكى الله على لسان عيسى عليه السلام قوله :

﴿ وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾[3] .

ونقرأ من وصايا لقمان لابنه :

﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وَانْهَ عَنِ الـمُنكَرِ ﴾[4] .

ويذكر الله عددا من أنبيائه ورسله ويثنى عليهم بقوله :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وَبُكِيًّا ﴾[5] .

ثم يذم من جاء بعدهم ويبين أن من أسباب ذمهم إضاعتهم الصلاة

---

(١) طه ١٤ (٢) يونس ٨٧ (٣) مريم ٣١

(٤) لقمان ١٧ (٥) مريم ٥٨

وذلك حين يقول :

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ﴾[١] .

وإذا كانت هذه هى مكانة الصلاة فى الديانات السابقة للإسلام فإن مكانتها فى الإسلام أرفع من أن يمارى فيها ، أو يلتمس الدليل على إثباتها ، فما من موضع تعرض القرآن فيه لرسم صورة المؤمنين أو المتقين أو المخبتين أو أولى الألباب ، إلا ونجد الصلاة من أبرز ملامح الصورة . ومن أشد حبات العقد وضاءة وإشراقا . وذلك بخلاف غيرها من الصفات التى نجدها تارة ونفتقدها أخرى . نقرأ من ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾[٢] .

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ﴾[٣] .

﴿ وبشر المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم ، والمقيمى الصلاة ﴾[٤] .

ويقرر القرآن أن التذكر النافع مقصور على أولى الألباب فى قوله تعالى :

---

(١) مريم ٥٩ (٢) البقرة ٢ ، ٣ (٣) المائدة ٥٥ (٤) الحج ٣٥

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ثم يذكر من أوصافهم :
﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ﴾[1] .
ويصف الله كتابه الكريم بأنه مبارك مصدق الذى بين يديه ثم يقول :
﴿ والذين يومنون بالأخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[2] .

والصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى لا بد من أن يمارسه المسلم عدة مرات فى كل يوم ، وفى أوقات محددة ، وفي خشوع تام ، وصدق الله العظيم حيث يقول :
﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا ﴾[3] .
وقد عنى القرآن الكريم أن يوضح أن المحافظة عليها والخشوع فيها من علامات الإيمان ومما يوصف به المؤمن ، نقرأ فى ذلك قول الله سبحانه :
﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[4] .
﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾[5] .
ويبين القرآن بعض جوانب الطبيعة البشرية فيقول :
﴿ إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ﴾
ثم يقرر أن المصلين لا يتصفون بهذا الجانب السىء فيقول :

---

(١) الرعد ٢٢ (٢) الأنعام ٩٢ (٣) النساء ١٠٣
(٤) المؤمنون ١ ، ٢ (٥) المؤمنون ٩

﴿ إلا المصلين ﴾[1] . ويذكر من أوصافهم:

﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[2] .

﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾[3] .

ومن السهل أن يفهم الإنسان السر في طهارة صحيفة المصلى ونقاوة طبيعته عن النقائص التى تلحق بغيره، فهو دائم الصلة بالله، إذ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ومن هنا كانت الصلاة طهرة لمن يؤديها وكان المحافظ عليها فى مأمن من وساوس الشيطان وشطحات النفس التى تبعده عن طريق الهداية والرشد، وصدق الله حيث يقول :

﴿ وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[4] .

وحيث يوضح لعباده أن مما يحاول الشيطان أن ينجح فيه إبعادهم عن الصلاة التى تربطهم بالخالق وتفتح عيونهم وقلوبهم ليميزوا بين الضلال والهدى، يقول الله سبحانه :

﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون ﴾[5] .

ومن هنا كذلك كانت الصلاة الخالصة لله وسيلة يهرع إليها المؤمن عندما تواجهه شدة أو يحيط به بلاء، فتعينه على الصبر، وتخفف من

---

(١) المعارج ١٩ - ٢٢ (٢) المعارج ٢٣ (٣) المعارج ٣٤

(٤) العنكبوت ٤٥ (٥) المائدة ٩١

وقع المصائب على نفسه، كما يهرع إليها ويدعو الله فيها أن يعينه على أداء طاعته، وصدق الله حيث يقول:

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾[1].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

ومما يلفت النظر أن التعبيرات القرآنية بالنسبة للصلاة تنحصر فى إقامتها والمحافظة عليها، والخشوع فيها، ثم المداومة على فعلها وكل هذه التعبيرات لا مدلول لها إلا إذا كان الإنسان مستحضراً عظمة الخالق حين يقف بين يديه، مقدراً لهذه العبادة قدرها، فلا يقربها إلا وهو مستعد لها ومقبل عليها بروحه وجوارحه سواء، وقد عنى القرآن بتوجيه المؤمن إلى واجبه فى ذلك كله، فأوجب الطهارة على من يقصدها فى قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنبًا فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائط، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾[2].

---

(١) البقرة ٤٥ (٢) المائدة ٦

ونهى عن قربانها كل من فقد السيطرة على تصرفاته شأن السكران الذى لا يعى ما يقول، فإذا عادت إليه طبيعته، وملك زمام نفسه، أقبل عليها. يقول الله سبحانه:

﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ﴾[1].

● جاء فى تفسير ابن كثير عن الأية المذكورة:

[وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدالصمد حدثنا أبى، حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلى فلينصرف ولينم حتى يعلم مايقول». انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم. انتهى

ويوحى القرآن الكريم إلى المؤمنين به أن الصلاة وسيلة إلى وحدتهم ففيها يتجهون - أيا كانت أمكنتهم وألوانهم وجنسياتهم - إلى قبلة واحدة فيحسون بوحدة أمتهم وبوحدة مصيرهم، وهو إحساس يقوى من نفوسهم ويضاعف من معنوياتهم، يقول الله سبحانه:

﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء. فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام. وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[2].

---

(١) النساء ٤٣ (٢) البقرة ١٤٤

ويقول جل شأنه:

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[1].

ويكرر ما جاء فى الآيتين مرة أخرى مما يدل على أهمية التوجيه والأمر فيقول عز وجل:

﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[2].

ولأهمية الصلاة فى تعاليم الإسلام أوجب على المؤمن أن يحافظ عليها فى كل حالة من حالاته، ولم يسقطها عنه إلا إذا كان على وضع يتنافى مع ما يلزم للصلاة نفسها من طهارة واجبة، كما نجد فى التشريع الخاص بالحائض والنفساء.

ومن هنا رأينا القرآن الكريم يوجبها فى حالة فقد الماء، ويوجب التيمم بالتراب عوضا عنه، وذلك حين يقول:

﴿ وإن كنتم مرضى، أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيبًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾[3].

ورأينا القرآن كذلك يصرح بوجوبها وقت الحرب، وفى حالة السفر.

---

(1) البقرة ١٤٩ (2) البقرة ١٥٠ (3) المائدة ٦

وعندما يكون المؤمن فى حالة خوف لا يسهل عليه معها أن يؤدى الصلاة كاملة أو على الوجه المطلوب، وإن كان قد شرع لكل ظرف ما يتناسب معه من تخفيف، فأباح قصر الصلاة فى حالة السفر فى قوله تعالى:

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾[1].

وشرع لحالة الخوف صلاة خاصة إذا أديت فى جماعة وذلك حين يقول سبحانه:

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك، وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعو أسلحتكم. وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾[2].

وأسقط وجوب استقبال القبلة إذا لم يكن من السهل على المصلى أن يستقبلها فقال جل شأنه:

﴿ فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ﴾[3].

---

(١) النساء ١٠١ (٢) النساء ١٠٢ (٣) البقرة ٢٣٩

ونجد القرآن يوجب على المسلمين صلاة جامعة فى يوم الجمعة من كل أسبوع، وذلك حين يقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[1].

وهى الصلاة الوحيدة التى يجب السعى إليها عند النداء لها دون تأخير.

وفى اجتماع كل جماعة من المسلمين فى مكان واحد فرصة للتعرف على أحوال الأفراد والوقوف على ما تحتاج إليه الجماعة، وفى تشريع خطبة الجمعة ما يمكن من الوصول إلى هذا الهدف الاجتماعى النافع.

وتشريع صلاة الجمعة لا يعنى البطالة أو الانقطاع عن العمل فى هذا اليوم. فالإسلام لا يعرف هذا المعنى، ولذلك نص القرآن الكريم على إتاحة العمل فى يوم الجمعة فى قول الله تبارك وتعالى:

﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾[2].

ولم يفت القرآن الكريم أن يقرر أن الصلاة التى تصل العبد بربه وتعينه على تحمل ما يشاء له القدر من صعاب، وتدفعه خطوات فى طريق الطاعة والامتثال لله، ليست سهلة إلا على هؤلاء الذين خشعت قلوبهم

---

(١) الجمعة ٩ (٢) الجمعة ١٠

للواحد الأحد ، وأيقنوا بالرجوع إليه فرجوا رحمته وخافوا عذابه ، أما غيرهم ، فهى كبيرة عليهم وشاقة على نفوسهم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾[1].

وهذا يفسر لنا قول الله سبحانه لرسوله ﷺ

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[2].

******

---

(١) البقرة ٤٥ ، ٤٦ (٢) طـه ١٣٢

إيتاء الزكاة

من المعلوم لكل باحث فى الدراسات الإسلامية أن الزكاة نوع من الصدقة، هى الصدقة الواجبة، وهناك نوع آخر تحدث عنه القرآن، وتحدثت عنه السنة، هو الصدقة المندوبة أو غير الواجبة ويجمع النوعين لفظ «الإنفاق» أو «إيتاء المال»

و«الزكاة» هى التى لا بد منها فى تحقيق وصف الإيمان، وأما ما وراء ذلك من إنفاق غير واجب فهو زائد عن مفهوم الإيمان ويمثل جزءاً من مفهوم التقوى وما يساويها فى عرف القرآن.

والمتتبع للتعبيرات القرآنية فيما يختص بالإنفاق أو إيتاء المال يلاحظ أنه:

١ ـ عندما يوجه الله أمراً إلى المؤمنين بالإنفاق يقول: ﴿آتوا الزكاة﴾ ومن هذا قوله تعالى: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم، وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداءَ على الناسِ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ [١].

---

(١) الحج ٧٨

وقوله عز وجل :

﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾[1] .

وإذا وجد الأمر بالإنفاق في بعض الآيات ، فقد سبق بالأمر بالتقوى وذلك في قوله تعالى :

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[2] .

٢ ـ وعندما يحدد الله معنى الإيمان يعبر ـ فيما يتعلق بالإنفاق ـ بلفظ (يؤتون الزكاة) ومن هذا قوله تبارك وتعالى :

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾[3]

وقوله جل شأنه :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ﴾[4] .

وعلى هذا المعنى (الصدقة الواجبة) ينبغي أن يحمل معنى الإنفاق كلماجاء في وصف المؤمنين، مثل قوله تعالى :

---

(١) النور ٥٦ (٢) التغابن ١٦ (٣) المائدة ٣٥ (٤) التوبة ٧١

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١) .

٣ ـ وعندما يتحدث القرآن عما أوحى إلى بعض الرسل السابقين من عناصر الإيمان. يذكر منها إيتاء الزكاة. يقول الله تعالى :

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (٢) .

ويخبرنا الكتاب الكريم أن عيسى عليه السلام قال :

﴿ إني عبدالله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيًا ، وجعلني مباركًا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا ﴾ (٣)

وأثنى الله على رسوله إسماعيل عليه السلام بقوله :

﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (٤) .

٤ ـ والصدقة الواجبة (الزكاة) لا يعفى الإنسان منها إذا أخرجها سراً ، ولم يثبت لولي الأمر صحة دعواه في ذلك ، وخاصة عندما تكون تعاليم الإسلام مطبقة كما ينبغي .

ونعلم أن من مخارج الزكاة (العاملون عليها) ونعلم كذلك أنها تؤخذ

---

(١) الأنفال ٢ ، ٣ (٢) الأنبياء ٧٣ (٣) مريم ٣٠ ، ٣١ (٤) مريم ٥٥

قسرا من مانعها ، وأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل فى سبيل الحصول عليها وقال :

﴿ لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ﴾ ولو كان يجوز إخراجها سراً لكان هناك مخرج لهؤلاء الخبثاء لينقذوا أنفسهم من العقوبة ولما كان هناك وجه لما فعل خليفة رسول ﷺ ، وتعبير القرآن الكريم فى موضوع الزكاة يؤيد ما نقول ، وذلك حين نقرأ قول الله تعالى لنبيه ﷺ :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (١) .

أما الصدقة المندوبة ، فنجد أنها تقبل سراً ، بل إخفاؤها أعظم درجة فى نظر الإسلام .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ (٢) .

خصوصا إذا أعطيت الصدقة لهؤلاء الذين ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾

حفاظا على كرامتهم ، وإبقاء على ماء وجوههم .

ونجد أن الإنفاق فى السر والعلانية من أوصاف أولى الألباب وقد

---

(١) التوبة ١٠٣ (٢) البقرة ٢٧١

أدرج مع أوصاف أخرى تجعل أصحابها في درجة أعلى من مجرد الإيمان، مثل درء السيئة بالحسنة يقول الله تعالى في أوصاف هؤلاء :

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنه السيئة ﴾ [1] .

ونجد كذلك أن من أوصاف المتقين :

﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ [2].

وقد أدرج مع قوله تعالى :

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ ، وكل ذلك يزيد عما يتطلبه مجرد الإيمان ، فالقرآن الكريم يقول :

﴿ .. وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [3]

ثم يذكر من أوصاف هؤلاء :

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها .. ﴾ [4].

ثم يوضح هذا المعنى أكثر فيقول :

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ [5].

ويبين بعد هذا كله أن العفو والصفح والصبر على الإساءة من الأمور

---

(١) الرعد ٢٢ . (٢) آل عمران ١٣٤ . (٣) الشورى ٣٦ .
(٤) الشورى ٣٩ ، ٤٠ . (٥) الشورى ٤١ .

التى لا يسهل على النفس البشرية العادية ممارستها فيقول :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ [1] .

والزكاة فى تقويم الإسلام طهرة وتزكية للمال ولصاحبه ، كما ينطق بذلك قول الله سبحانه :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [2] .

ويظهر هذا المعنى جليًا عندما نتأمل مصارفها التى حددها الله فى قوله :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [3] .

فهؤلاء الذين تقضى حاجاتهم ، وتفرج كرباتهم عن طريق الزكاة يؤلفون جزءاً كبيراً من أفراد الأمة الإسلامية ، ولو تركوا نهبًا للفقر وعرضة للجوع ؛ لكانوا مصدر خطر ، مباشر أو غير مباشر ، على الأمة وعلى أغنيائها ، ولتركزت فى نفوسهم المعانى التى تمثل عوامل الهدم وتصدع البنيان فى كل جماعة ، من حقد وحسد وكراهية .

ولقد كان الإسلام حكيماً فى تنظيم فريضة الزكاة تحصيلاً وصرفًا ، فولى الأمر يتقاضاها من الأغنياء تنفيذاً لقوله تعالى :

﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ وعن طريقه تصرف لمستحقيها من

---

(١) الشورى ٤٣ .   (٢) التوبة ١٠٣ .   (٣) التوبة ٦٠ .

الفقراء وغيرهم من أصحاب الحق فيها ، وبهذا حصن الفقير وأعز نفسه ، فهو لا يتقاضى إلا حقه ، ومن الدولة التى يخدمها ويؤلف لبنة فى بنائها ، وليس لإنسان عليه فضل أو منة ، فالغنى لم يحسن إليه ، وإنما أدى ما عليه من واجب للدولة ، وليست هناك مواجهة بين مواطن غنى وآخر فقير يفهم منها أن الغنى متفضل ، وأن الفقير يمد يده استعطافا واستدراراً للرحمة ، وهذا خير تنظيم يؤدى إلى وحدة الأمة ، وتعاون أفرادها دون عنجهية من قادر ، ودون إذلال لمحتاج .

وإذا كانت الصلاة هى الركن الإسلامى الذى عن طريقه تتوثق العلاقة بين العبد وربه ، مما ينعكس أثره على مايصدر عنه من تصرفات تتفق وتعاليم الدين ، إذ تنهى من يؤديها حق أدائها عن الفحشاء والمنكر ، فإن الزكاة هى الركن الذى عن طريقه تتوثق العلاقات بين أفراد الأمة الإسلامية ويقيها مما يوهن من قوتها ويضعف من صلابتها .

ومن هنا كانت الزكاة صنو الصلاة ، وكان اقترانهما معاً فى آيات الكتاب الكريم فى كل موضع تحدث فيه عن الإيمان ومقوماته ، أو رسم فيه صورة المجتمع الإسلامى المثالى ، مما يجعل لهذين الركنين مكانة خاصة فى نظر القرآن الكريم ، وتبدو هذه المكانة بشكل بارز عندما يتحدث القرآن عن المشركين وناقضى العهود ومن اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إذا تابوا ورجعوا عن غيهم فقد جعل إقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة من شروط قبول توبتهم وربطهم بالمسلمين برباط الدين، يقول الله سبحانه:

﴿ فإن تابوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ [1] .

وحين يبين أن نصر الله لعباده مشروط بأن ينصروه في قوله تعالى :

﴿ ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز ﴾ [2] .

فقد بين صفة هؤلاء في قوله عز وجل :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور ﴾ [3] .

******

---

(١) التوبة ١١ (٢) الحج ٤٠ (٣) الحج ٤١

ولاية المؤمنين

ومن الصفات التى عددها القرآن الكريم، وهو بصدد رسم صورة المؤمنين والمؤمنات، أن بعضهم أولياء بعض، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [1] .

وخير ما يتمثل هذا إنما يكون فى الصداقة والنصرة، فالصديق المقرب للمؤمن ينبغى أن يكون مؤمنا مثله، وعليه أن يكون مستعداً لنصرة أهل دينه بالمعنى الذى يرضاه الإسلام. وهو المأخوذ مما جاء فى كتب الحديث من أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»: قالوا : ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً يا رسول الله؟

فقال ﷺ «أن تكفه عن ظلمه».

ويجلو هذا المعنى ما جاء فى نفس الآية من قوله تعالى:

﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ بعد قوله عز وجل:

﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ فالكف عن الظلم من النهى عن المنكر.

وقد عنى القرآن الكريم بهذا العنصر عناية تلفت النظر وتدعو إلى الانتباه، فلم يكتف بذكر الناحية الإيجابيه من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وإنما صرح بالناحية السلبية كذلك، ونهى المؤمنين عن أن يتخذوا

---

(١) التوبة ٧١

بطانة من دونهم وبطانة الرجل خصيصته وصفيه الذى يطلعه على سره ، ويخصه بمزيد القربى ويأنس إليه فيشكو إليه حاله ، ويتوقع نصره إذا وقع فى مكروه، وكل ذلك لا يمكن أن يتحقق إذا تخالفت العقيدة بين شخصين .

فالعقَّيدة فى نظر التعاليم الإسلامية ، هى التى تميز الإنسان عن غيره أو تجمعه بغيره ، فهى فى لغة عصرنا توازى ما تعورف عليه من التعبير بالجنسية ، وكما تدعو كل دولة رعاياها إلى الحرص على أسرارها وعدم التقرب ممن يخالفها فى نظمها ومبادئها فالدين كذلك ، لأن الدين هو الرابطة الحقيقية بين أتباعه ، ومن هنا نجد اختلاف الدين يقضى على صلة الدم والنسب فلا يترتب عليها شىء من ميراث أو ولاء إذ لا توارث بين مسلم وغير مسلم فى شريعة الإسلام أياً كانت الصلة النسبية بين الوارث والمورث .

هذا التقويم لمكانة الدين ليس غريبا على من يعرف أثره فى نفوس أتباعه والمخلصين له ، لا فرق فى ذلك بين دين صحيح وآخر فاسد ، فهو قوة دافعة إلى التضحية بكل شىء فى سبيله مادام الاعتقاد به موجوداً ، وكل مؤمن بدين يحاول جاهداً تكثير أتباعه وجذب الغير إليه ، وتاريخ الإنسانية فى جميع مراحله غنى بالأمثلة التى تؤيد هذه الحقيقة .

ومن هنا كان توجيه القرآن الكريم للمؤمنين به ، ونهيه الواضح لهم عن

اتخاذ خلصاء ممن يخالفونهم فى العقيدة، يعتمدون عليهم فيما يعظم من أمورهم، ويفضون إليهم بأسرارهم وأسرار جماعتهم ويعملون بمشورتهم فى تصريف شئونهم، خاصة إذا كانوا موتورين منهم، وامتلأت قلوبهم بالضغينة والحقد عليهم، ولعل أوضح صورة لهؤلاء يجليها قول الله تبارك وتعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولآء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ (١) .

وفى ضوء هذا التصوير تظهر الحكمة فى النهى الوارد فى مثل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

---

(١) آل عمران ١١٨، ١١٩ (٢) المائدة ٥١

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ [1] .

وقد بين القرآن الكريم أن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين جريمة تجعل صاحبها مسئولاً بين يدى الله عز وجل ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ [2] .

ويبين كذلك أن الإقدام على هذا العمل يعتبر من خصائص المنافقين الذين لم تعرف قلوبهم طعم الإيمان بالله ، وتلمسوا العزة فى موالاة الكافرين .

يقول الله سبحانه :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا ﴾ [3] .

وتوجيه القرآن الكريم فى هذا الباب جمع الحكمة من طرفيها ففى الطرف الإيجابى نجد عوامل الاتحاد والقوة للجماعة المؤمنة عندما يوالى كل فرد فيها أخاه فى العقيدة ، ويجعله موضع سره ومحل صداقته ، ويهب لنصرته عند الحاجة ، ويتعاون معه على الخير والبر ، وينبهه إذا تنكب طريق الصواب ، ويكفه عن الظلم إذا حاول ارتكابه ، وبهذا

---

(١) التوبة ٢٣ (٢) النساء ١٤٤ (٣) النساء ١٣٨ ، ١٣٩

يتحقق ما يجب أن يكون بالنسبة لجماعة المؤمنين من أنهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، كما جاء فى تعبير الرسول ﷺ .

وفى الطرف السلبى ، نجد الوقاية الواجبة ، والبعد عن مصادر الداء وعوامل التفتت ، فما من شك فى أن الصديق يؤثر فى صديقه ، واتخاذ المخالف في الدين نصيراً ووليا يؤدى إلى مالا يرضاه المؤمن لدينه أو لجماعته ، فنفوس هؤلاء غير نقية بالنسبة للمؤمنين ، وقد وفى القرآن هذا الموضوع حقه فى كثير من آياته ، نقرأ منها قوله تعالى :

﴿ مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ [١] .

وقوله سبحانه :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [٢] .

وقوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ [٣] .

---

(١) البقرة ١٠٥ (٢) البقرة ١٠٩ (٣) آل عمران ١٠٠

وقوله جل شأنه :

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ [1] .

ثم قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ [2] .

وبهذا تتكامل الصورة لهؤلاء الذين يجب على المؤمن أن يكون على جانب كبير من الحذر فى الصلة بهم أو التعاون معهم . وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ [3] .

******

---

(١) آل عمران ١٢٠ (٢) النساء ٤٤ (٣) المجادلة ٢٢

الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر

*

وإذا كان الكتاب الكريم قد شرع للمؤمن كفرد، فقد شرع له كذلك كجماعة وأمة، وكما أثبت مسئوليته الشخصية عن أعماله الفردية فقد أثبت مسئوليته الجماعية فى كل ما يتعلق بسلامة أمته من فساد، وأوجب عليه العمل لإصلاح الفاسد وتقويم المعوج، وأوضح أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من مقومات شخصية المؤمن التى لا يتحقق وجودها بدونه، وذلك حيث يقول:

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [1].

وهم فى ذلك على عكس المنافقين الذين يصفهم القرآن فيقول:

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ [2].

وعنى القرآن الكريم كذلك ببيان أن هذا الواجب ليس خاصاً بالمؤمن

---

* جاء فى مفردات الراغب:
والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه.
والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة..

(١) التوبة ٧١ (٢) التوبة ٦٧

كفرد، وإنما هو من مقومات الجماعة المؤمنة، وعليها أن تهييء وتعد من أفرادها من يكون عمله، الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقول الله تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾(١).

وبين أن القيام بهذا الواجب مع الإيمان بالله، هو الذى جعل الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فى قوله عز وجل:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس. تأمرون بالمعروف. وتنهون عن المنكر. وتؤمنون بالله﴾(٢).

كما بين أنه شرط فى الحصول على نصر الله لهم وإمدادهم بعونه. وذلك حيث يقول سبحانه:

﴿..ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة. وآتوا الزكاة. وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور﴾(٣).

وليس فى هذا كله غرابة، إذ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعاء يشمل كل ما جاءت به الأديان والرسالات المتعاقبة يقول الله سبحانه فى وصف من سيكتب لهم رحمته التى وسعت كل شيء :

---

(١) آل عمران ١٠٤ (٢) آل عمران ١١٠ (٣) الحج ٤٠، ٤١

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾[1] .

ومن هنا كان من مقومات الشخصية المؤمنة فى كل مرحلة من التاريخ الإنسانى :

حكى القرآن الكريم من وصايا لقمان لابنه قوله له :

﴿ يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ﴾[2] .

ومدح الله سبحانه بعض أهل الكتاب فقال :

﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ، يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ﴾[3] .

فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف . والنهى عن المنكر .

وينطق القرآن الكريم بأن إتيان المنكر وشيوعه كان سبباً فى هلاك قوم لوط عليه السلام بعد أن أعرضوا عن دعوة الخير . وتمادوا فى غيهم،

---

(١) الأعراف ١٥٧ (٢) لقمان ١٧ (٣) آل عمران ١١٣ ، ١١٤

ولم يعبئوا بتبكيت لوط لهم حين خاطبهم بقوله :

﴿أئنكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر﴾[1] .

وينطق كذلك بأن عدم التناهى عن المنكر جريمة يستحق أصحابها اللعنة، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون﴾[2] .

ومن الناحية المقابلة. قرر القرآن أن النهى عن المنكر كان سبباً فى نجاة أصحابه، فيقول فى حديثه عن القرية التى كانت تعدو فى السبت :

﴿وَسْئَلْهُمْ عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون .

وإذ قالت أمة منهم لما تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾[3] .

---

(١) العنكبوت ٢٩ (٢) المائدة ٧٨، ٧٩ (٣) الأعراف ١٦٣ - ١٦٥

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم اللبنات فى بناء الجماعة المؤمنة التى تحاول تحقيق خلافة الإنسان لله فى الأرض والتى وعدها الله النصر ما دامت ملتزمة لصراطه المستقيم فإن عوامل الهدم وجنود الفساد ـ وعلى رأسها الشيطان ـ تسعى دائما إلى الحيلولة بين الإنسان والسير فى هذا الطريق، إنها تأمره بالفحشاء، وتدفعه إلى المنكر، ولقد كان من رحمة الله بعباده أن بين لنا ذلك فى كتابه الكريم وخاطب عباده بقوله تعالى :

﴿ .. ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدوٌ مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(١)

وبقوله عز وجل:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾(٢).

أما طريق الله الواضحة المستقيمة، فهى على عكس ذلك تماما وقد بينها سبحانه فى قوله:

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(٣).

---

(١) البقرة ١٦٨ ـ ١٦٩ (٢) النور ٢١ (٣) النحل ٩٠

طاعة الله ورسوله

ومن أوصاف المؤمنين التى تحدد شخصيتهم أنهم يطيعون الله ورسوله.

وطاعة الله سبحانه وتعالى من مستلزمات الإيمان به والثقة فى حكمته وعدله ورحمته، وإذا كان الشرع يوجبها على المؤمن، فإن العقل السليم لا يسعه إلا أن يراها نتيجة منطقية للإيمان الذى لا يرتاب صاحبه. الإيمان بالخالق الذى يحيط علمه بكل شىء. والذى ـ وحده ـ يعلم مايصلح لعباده فى دنياهم وآخرتهم، فشرع لهم ما يوصلهم إلى السعادة فى الدارين.

وطاعة الله سبحانه تشمل فعل كل ما أمر به، واجتناب كل ما نهى عنه. ومن هنا كان فيها العصمة من الانحراف والضلال، وكان الهلاك والبعد عن الهداية فى طاعة غيره وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون ﴾[١].

ونود أن نقف هنا قليلاً لنقول لهؤلاء الذين ينادون بتحكيم الضمير ويتخذون منه بديلاً عن تشريع الله لعباده ، وأولئك الذين يحبذون

---

(١) الأنعام ١١٦

اتباع ماتعارف الناس على تسميتهم بالفلاسفة والحكماء وإن كان قولهم يخالف ماجاء به الدين: إن التشريعات الإنسانية ـ مهما كانت مكانة أصحابها من العلم والمعرفة ـ محدودة وقاصرة، وهى وإن صلحت فى بعض الأحيان لمن شرعت لهم، فلن تصلح لمن يجىء من بعدهم، لتغير القيم، وتطور الجماعات، وهم فيما يصدرون لا يستندون إلى يقين، وإنما ينبع تفكيرهم عن ظن لا يقين فيه، وصدق الله إذ يقول :

﴿إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون﴾ .

وقد جعل القرآن الكريم من التشريع الإنسانى هدفًا للاعتراض والتخطئة. والنعى على أصحابه وتبكيتهم. لأنه غاير شرع الله. وقلب المعايير. وأفسد المفاهيم. واقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[1].

وقوله سبحانه :

﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ، ساء مايحكمون ، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم

(١) المائدة ١٠٣

دينهم ، ولو شاء الله مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم ، قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾[١] .

وقوله عز وجل :

﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج ، من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ، أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[٢] .

وطاعة الله لا تتحقق إلا بطاعة رسوله ﷺ ، ذلك لأن شرع الله لا يعرف إلا عن طريق من اختاره من خلقه ، ليكون المبلغ لشرعه إليهم ولذلك لا نجد آية فى الكتاب الكريم تذكر طاعة الله دون أن تكون مقرونة بطاعة الرسول . سواء كان ذلك فى صيغة الأمر كما فى قوله

---

(١) الأنعام ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ (٢) الأنعام ١٤٢ - ١٤٤

تعالى :

﴿ قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[1] .

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾[2] .

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾[3] .

﴿ وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾[4] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾[5] .

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[6] .

﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[7] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم ﴾[8] .

---

(١) آل عمران ٣٢ (٢) آل عمران ١٣٢ (٣) المائدة ٩٢ (٤) الأنفال ١
(٥) الأنفال ٢٠ (٦) الأنفال ٤٦ (٧) النور ٥٤ (٨) محمد ٣٣

أو كان في صيغة الخبر كما في قول الله عز وجل :

﴿ تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾(١) .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾(٢) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(٣) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(٤) .

﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليماً ﴾(٥) .

﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ﴾(٦) .

وفي ضوء تلك الصلة بين طاعة الله وطاعة رسوله لا يكون هناك وجه للاعتراض على طلب رسل الله عليهم السلام - من أقوامهم أن يطيعوهم ، وذلك فيما حكاه القرآن الكريم عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه ، فقد قال كل منهم لقومه :

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾(٧) .

---

(١) النساء ١٣ (٢) النساء ٦٩ (٣) النور ٥٢ (٤) الأحزاب ٧١
(٥) الفتح ١٧ (٦) الحجرات ١٤
(٧) الشعراء ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٦٣ - ١٧٩

وفيما حكاه عن عيسى بن مريم عليه السلام فى قوله تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ﴾[١] .

. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله . . ﴾[٢] .

ويقول جل شأنه :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾[٣] .

وكما قرن القرآن بين طاعة الله وطاعة رسوله ورتب عليهما من الثواب ما رتب فقد قرن كذلك بين معصيته سبحانه ومعصية رسوله ، ورتب عليهما من العقوبة ما شاء .

يقول الله سبحانه :

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[٤] .

ويقول جل شأنه :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[٥] .

---

(١) الزخرف ٦٣ (٢) النساء ٨٠ (٣) النساء ٦٤ (٤) النساء ١٤
(٥) الأحزاب ٣٦

ويقول عز وجل:

﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغًا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾[1] .

ولأن معصية الرسول من معصية الله فقد صح أن ترتب العقوبة على معصية رسله عليهم السلام. يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول ، فأخذناه أخذًا وبيلاً ﴾[2] .

ويقول عزل وجل:

﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[3] .

وطلب من الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يتبرأ من عمل من يعصيه في قوله تعالى :

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾[4] .

ونجد في الكتاب الكريم. بجوار المطالبة بطاعة الله وطاعة رسوله المطالبة بطاعة أولي الأمر في الدولة الإسلامية.

---

(1) الجن ٢٢ ، ٢٣ (2) المزمل ١٥ ، ١٦ (3) الحاقة ٩ ، ١٠
(4) الشعراء ٢١٤ - ٢١٦

ولكن هذه الطاعة مشروطة بألا يتنكب هؤلاء طريق الحق التى رسمها الله وبينها رسوله. ونصح القرآن أتباعه بأن يكون شرع الله الذى بلغه الرسول وفسره بسنته الفعلية والقولية هو الحكم عندما يوجد خلاف بين جماعة المسلمين. وبهذا حدد المعالم. وأوضح أن طاعة أولى الأمر من طاعة الله وطاعة رسوله. يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا ﴾(١).

ولم يفت القرآن الكريم أن يقيد الحاكم فى استخدام سلطانه إذ أوجب عليه ألا يحكمَ بغير ما أنزل الله وشرع، فإذا تنكب ذلك فهو كافر وظالم وفاسق وذلك فى قوله تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾(٢).

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾(٣).

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾(٤).

******

---

(١) النساء ٥٩ (٢) المائدة ٤٤ (٣) المائدة ٤٥ (٤) المائدة ٤٧

الإعراض عن اللغو

وذكر القرآن الكريم من أوصاف المؤمنين :

﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[1] .

ويقول الراغب الأصفهاني في مفرداته :

[اللغو من الكلام ما لا يعتد به ، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغواً .

قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ .

وقال : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

﴿ لايسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ﴾ .

ثم قال : ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ، ومنه اللغو فى الأيمان] .

ويترجح عندنا أن اللغو فى الآية التى صدرنا بها هذا الموضوع يشمل كل ما لا يعتد به من قول أو فعل ، فالمؤمن ينبغى :

١ ـ أن يكون جاداً فى حياته ، فلا ينفق وقته فيما لا يفيد ، خاصة وهو يعلم أن الرسول ﷺ أخبرنا بأن المرء سيسأل عن عمره فيم ضيعه .

٢ ـ وأن يكون لسانه عفيفًا فلا ينطق إلا بما يفيده أو يفيد غيره من

---

(١) المؤمنون ٣

إخوانه فى الإنسانية ، خاصة وهو يعلم أن الرسول ﷺ وصف المؤمن بأنه غير فحاش ولا نمام ولا كذاب، وأنه قال :

﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت﴾

٣ ـ وأن يكون رجل سلام فى حدود المحافظة على دينه ، فلا يشارك فى مجلس يسود فيه اللغو من الحديث :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾[١] .

ولا يعير سمعه لمن يحاول أن يخوض فى آيات الله ويهاجم دينه وشريعته امتثالا لقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره﴾[٢] .

******

---

(١) القصص ٥٥ (٢) الأنعام ٦٨

العفة «المحافظة على العرض»

وذكر القرآن الكريم من أوصاف المؤمنين :

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾[1] .

وبهذا النص المحكم أباح للمؤمن إشباع غريزته ومسايرة ما خلق عليه من طبيعة يشارك الحيوان فيها إبقاء على نوعه، واستمراراً لعمارة الكون، وأقام في الوقت نفسه سياجاً قوياً بين هذه الطبيعة الحيوانية وما يجب أن يكون عليه الإنسان من تنظيم لنسله وتحديد للصلة بين أجياله المتعاقبة، هذا التنظيم الذى يتمثل فى تشريعات النكاح التى يختص بها النوع الإنسانى دون سائر الحيوانات الأخرى.

وعن طريق هذه التشريعات تتحقق الأهداف التى تميز الحياة الإنسانية وترفع من مكانتها، ومن هذه الأهداف التعارف بين أفراد النوع، والذى لا يتم إلا بين قبائل وشعوب متمايزة ولا ريب أن تحديد القبائل وتمايز الشعوب لن يكون إلا عن طريق الزواج المنظم والمحافظة على الأنساب وعدم اختلاطها وهو مايفهم من قول الله تبارك وتعالى :

(١) المؤمنون : ٥، ٦

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ﴾[1].

ومن الأهداف كذلك إشباع الميل الغريزى للأبوة والأمومة والذى لا يتحقق مع المحافظة على كرامة الإنسان إلا إذا كانت نتيجة الصلة المشروعة بين الرجل والمرأة وصدق الله حيث يقول :

﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾[2].

وقد صرح الكتاب الكريم بأن الصلة الجنسية المشروعة بين الرجل والمرأة لا سبيل إليها إلا عن أحد طريقين: الزواج ونكاح ملك اليمين، ولا طريق وراء ذلك.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾[3].

ومن هنا كانت الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة عن غير هذين الطريقين جريمة دينية وخلقية واجتماعية واستحق صاحبها العقوبة الرادعة فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة وذلك واضح من قول سبحانه :

---

(١) الحجرات ١٣ (٢) النحل ٧٢

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائةَ جلدة ولا تأخذكم بهما رأفةٌ فى دين الله إن كنتم تؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحُرِمَ ذلك على المؤمنين﴾(١).

ولا بد أن نوضح هنا أن إباحة الإسلام نكاح الرجل لأمته ليس فيه امتهان لكرامتها كما يحلو للبعض أن يقول ، إما تقليداً لبعض الذين يحاولون جهدهم تصوير الإسلام وأحكامه تصويراً بعيداً عن الحقيقة لغرض فى نفوسهم وإما جهلاً بحكمة التشريع السامية التى يهدف إليها هذا الدين الحنيف.

إن هذه الإباحة دليل واضح فى نظرنا على سماحة الإسلام وسموه فى المحافظة على الإنسانية وكرامتها فى كل فرد من أفرادها ، فالأمة امرأة لها غريزة الأنثى التى لا بد من إشباعها إذا أريد الحفاظ على كرامتها وكرامة الجماعة التى تنتسب إليها. ومن هنا أباح الإسلام للرجل أن ينكح أمته، ورتب على هذا النكاح كل ما يترتب على زواج الحرة من نتائج ، فإذا ولدت منه فهو ولده ومنسوب إليه وهو حر ولا يلحقه رق ، وبمجرد ولادتها له تصير أم ولد ، وتضع أولى خطواتها على طريق الحرية ويزول عنها كل ما يميز الأمة الرقيقة من إباحة التصرف فيها

---

(١) النور ٢ ، ٣

بالبيع أو بالهبة أو نحو ذلك ، وتعتق عتقًا كاملاً بمجرد موت سيدها الذى استولدها فإباحة نكاحها له ليس فيها امتهان لأنوثتها وإنما فيه التقويم الكامل لهذه الأنوثة وليس فيه استذلالها وإنما فيه التكريم لمعنى الإنسانية فيها ، إذ يفضى السيد إلى أمته إفضاءه إلى زوجته الحرة وليس فيه توثيق لرقها أو تضييق للحلقة حول رقبتها وإنما فيه تحطيم للأغلال التى تقيد حريتها وفتح لباب هذه الحرية على مصراعيه .

******

مراعاة الأمانة والعهد

وذكر الكتاب الكريم من أوصاف المؤمنين :

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[1] .

والأمانات لفظ عام يشمل كل ما أؤتمن الإنسان على أدائه من حقوق ، سواء أكانت لله سبحانه وتعالى أم لأحد من خلقه ، وسواء أكانت مالية أو غير مالية .

والعهد لفظ شامل لجميع ألوان الارتباطات والالتزامات التى يجب على الإنسان الوفاء بها .

وبتتبع الآيات الكريمة التى جاء فيها لفظ العهد أو الميثاق والذى [هوعقد مؤكد بيمين] كما قال الراغب في مفرداته يمكننا أن نقسم العهد إلى :

١ ـ ما يكون بين العبد وربه عز وجل ويشمل :

(ا) ما أسند العهد فيه إلى الله سبحانه وتعالى ، سواء أكان عاماً كما يؤخذ من قوله جل شأنه :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾[2] .

---

(١) المؤمنون ٨ (٢) يس ٦٠ ، ٦١

أم كان خاصاً كالذى نجد فى قوله تعالى :

﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[1] .

وفى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[2] .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾[3] .

(ب) ما أسند العهد فيه إلى الإنسان كما يؤخذ من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾[4] . وقوله سبحانه : ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا ﴾[5] .

وقوله جل شأنه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾[6] .

---

(١) البقرة ١٢ٵ (٢) آل عمران ٨١ (٣) آل عمران ١٨٧

(٤) التوبة ٧٥ (٥) الأحزاب ١٥ (٦) الأحزاب ٢٣

٢ ـ ما يكون بين الإنسان وأخيه الإنسان سواء أكان بين فرد وفرد أو بين جماعة وجماعة [ويشمل ما يكون من عهود بين دولةٍ وأخرى].

وكلا النوعين يندرج تحت قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾(١) .

وقوله سبحانه :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾(٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وآذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئًا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾(٣) .

---

(١) البقرة ١٧٧ (٢) الأنفال ٥٥ ، ٥٦ (٣) التوبة ١ ـ ٤

﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾(1) .

وأياما كان نوع العهد فإن الوفاء به واجب ديني ، وقد عنى القرآن الكريم ببيان ذلك في تعبيرات واضحة وأساليب مختلفة فنقرأ الأمر بالوفاء بالعهد في قوله تعالى : ﴿ وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾(2) .

وقوله سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾(3) .

وقوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾(4) .

ونقرأ النهي عن عدم الوفاء بالعهد بسبب الخضوع لزخرف المال وعرض الدنيا في قوله عز وجل ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(5) .

ويمدح الكتاب الكريم هؤلاء الذين يوفون بعهودهم ويقرر أنهم هم أصحاب العقول السليمة فيقول :

---

(1) االتوبة 7 (2) الأنعام 152 (3) النحل 91
(4) الإسراء 34 (5) النحل 95

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾[1] .

وفى الناحية المقابلة نجده يصف الذين ينقضون عهد الله بالفسق فيقول :

﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يضل به كثيراً . ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾[2] .

ونجده كذلك يذم هؤلاء الذين تغريهم المادة فتطغى على إنسانيتهم إلى درجة ينسون فيها التزاماتهم ويتوعدهم بعاقبة كلها سوء وخسران فيقول :

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾[3] .

ويقول أيضا :

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن

(١) الرعد ١٩ ، ٢٠ (٢) البقرة ٢٦ ، ٢٧ (٣) آل عمران ٧٧

يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[1] .

ويحكم بالنفاق على من لم يف بما عاهد الله عليه فيقول :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾[2] .

أما الذى يكرر نقض العهد ولا يقيم له وزنا فقد حكم القرآن عليه بالخروج من دائرة الإنسانية كلها ، ونقرأ فى ذلك :

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾[3] .

وعنى القرآن الكريم ببيان أن العهود التى يربطها الإنسان مع أخيه الإنسان ليست بعيدة عن رقابة الله عز وجل . والوفاء بها جزء من طاعة الله ، ونقضها لا يتفق مع طبيعة الإنسان السوى وطالب بأن تكون العهود بين الناس بعضهم وبعض قائمة على الصراحة والوضوح ، بعيدة كل البعد عن الخداع والغش ونهى عن أن يستغل فيها مركز القوة من جانب ومركز الضعف من جانب آخر فتفقد معناها ويضيع أثرها .

---

(١) الرعد ٢٥ (٢) التوبة ٧٥ - ٧٧ (٣) الأنفال ٥٥ ، ٥٦

نقرأ ذلك كله فى قول الله سبحانه :

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾[1] .

*****

---

(١) النحل ٩١ ، ٩٢

ثبات العقـــيدة

﴿ثم لم يرتابـــوا﴾

ومن مقـومات الإيمان ـ فى عرف القرآن الكريم قوة العـقيدة وثبـاتها بحيث لا يعتريها ضعف ولا يتطرق إلى نفس صاحبها شك ، وذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾[1] .

وثبات العقيدة يعرف بأمارات وأدلة يجليها ما يصدر عن الإنسان من تصرفات تجاه أوامر الله سبحانه وتعالى ، وتعاليم رسوله ﷺ ، ونجد فى القرآن الكريم مقارنة بين أصحاب العقيدة الثابتة والإيمان الذى لا تعتريه زلزلة ولا شك من ناحيـة ، وهؤلاء الذين نطقوا بكلمـة الإيمان دون أن يكون لها صدى فى نفوسهم من ناحية أخرى ، قارن بينهم فى أمرين :

أولهما : ما يكون من كل فريق بالنسبة لحكم الله ورسوله .

والثانى : يتضمن نوع الاستجابة إلى داعى الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه .

فبالنسبة للأمر الأول يقرر الكتاب الكريم أن أصحاب الإيمان الصحيح

---

(١) الحجـرات ١٥

لا يسعهم إلا الخضوع والطاعة لكل ما يصدر عن الله ورسوله من حكم، ولا يقيمون وزناً لرغباتهم الشخصية إذا تعارضت مع مايمليه حكم الله عليهم : يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ﴾(١) .

أما الفريق الآخر فيصفه القرآن في قول الله عز وجل :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ، أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا ، أمْ يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون ﴾(٢) .

ومن هذا البيان الإلهي يتضح أنهم لا يعنيهم سوى مايعود عليهم من عرض الدنيا سواء أكان في ذلك رضى الله أم غضبه.

وبالنسبة للأمر الثاني. نقرأ للمقارنة بين الفريقين في قوله تعالى:

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله

---

(١)النور ٥١ (٢) النور ٤٧ - ٥٠

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون ﴾[1] .

فالإيمان الثابت قوة تدفع صاحبها دائما إلى طاعة الله والتضحية فى سبيل دينه دون تردد ، لأن الله ورسوله أحب إلى المؤمن من أهله وماله وولده والناس أجمعين ، بل أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه ، ولعل فى قصة السحرة الذين جمعهم فرعون بغية القضاء على دعوة موسى عليه السلام وما انتهى إليه أمرهم من إعلان إيمانهم وعدم الخضوع لتهديد فرعون ما يبرهن على قوة الإيمان ودفع صاحبه إلى التضحية فى سبيله بنفسه ، وقد حكى القرآن الكريم هذه القصة فى غير موضع ، ومن ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فأُلقىَ

---

(١) التوبة ٤٤ ، ٤٥

السحرة ساجدين ، قالوا : آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ، قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ، قالوا : لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾[1] .

. ذلك هو أثر الإيمان الثابت فى نفوس أصحابه ، أما أصحاب العقيدة المزعزعة والإيمان الشكلى . فيحاولون دائما تبرير ما يصدر عنهم من عصيان وتخلف عن الطاعة ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم ما يجلى ذلك فى كثير من آياته ، كقوله تعالى :

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾[2] .

وقوله عز وجل :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾[3] .

وقوله جل شأنه :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن النافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴾[4] .

---

(١) الشعراء ٣٤ - ٥١ (٢) االتوبة ٥٦ (٣) التوبة ٧٤ (٤) المنافقون ١ ، ٢

الجهاد فى سبيل الله (*)

ومن مقومات الإيمان . الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله مصداقاً لقولهِ تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[1] .

ويؤخذ من الآيات القرآنية التى طلب فيها الجهاد من المؤمنين أن معناه ليس مقصوراً على حمل السلاح ومحاربة العدو فى سبيل الله وفى سبيل دينه . وإنما يشمل ـ مع هذا ـ المجاهدة واستفراغ الوسع بكل وسيلة من الوسائل للمحافظة على العقيدة . ورد كيد الكائدين لها .

وأقرب دليل على ذلك ، ذكر الجهاد فى القرآن المكى ، وقبل أن يؤذن للمسلمين بالقتال فى سبيل دينهم ـ فنقرأ فى سورة النحل ـ وهى مكية ، قول الله تبارك وتعالى :

(*) جاء فى مفردات الراغب :

«والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو ، والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى :
﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ ، ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾ ، ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ .

(١) الحجرات ١٥

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ، ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾[1] .

وتقرأ فى سورة العنكبوت - هى مكية - قوله عز وجل :

﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين﴾[2] .

وقوله جل شأنه :

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين﴾[3] .

ويدل على ذلك أيضا قول الله سبحانه :

﴿يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾[4] .

وبالرغم من أن الآية مدنية فى كلا الموضعين اللذين وردت فيهما فإن الجهاد بالنسبة للمنافقين لا يشمل المعنى الاصطلاحى الفقهى للفظ الجهاد ، لأننا نعرف أن الرسول ﷺ لم يرفع سيفًا فى وجه المنافقين رغم فضيحة القرآن لهم وتعداده لقبائحهم ورغم ما ارتكبوه من منكر فى حق الرسول ﷺ وفى حق جماعته من المؤمنين .

ثم هناك قول الله تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم

---

(١) النحل ١١٠ (٢) العنكبوت ٦ (٣) العنكبوت ٦٩ (٤) التوبة ٧٣

بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ﴾[1] .

فقد اعتبر القرآن الكريم الخروج من الوطن خوفًا من الفتنة فى الدين جهاداً فى سبيل الله ، وليس من شك فى أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، وما سبقها من هجرتهم إلى الحبشة لم تكن مصحوبة بقتال وأن هؤلاء الذين فروا بدينهم تسللوا فرادى وكلهم ابتهال إلى الله أن يتم رحلتهم بسلام قبل أن يعلم العدو برحيلهم فيقطع عليهم الطريق التى بدأوها .

والجهاد فى سبيل الله على الوجه الأكمل لن يتحقق إلا من مؤمن ملأ الإيمان عليه قلبه ونفسه واستأثر حب الله وحب رسوله وحب دينه بكل جارحة من جوارحه مما يجعله يقدم ماله ونفسه طائعاً مختاراً فى سبيل الله وهذه هى الحقيقة التى يعبر عنها قول الله سبحانه :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره

---

(١) الممتحنة ١

والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[1].

وقوله جل شأنه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[2].

وهذه الحقيقة هى التى تجعل المؤمن غير محتاج إلى ضياع وقت ولو فى استئذان الرسول ﷺ دون أن يندفع إلى أداء واجبه المقدس ومجاهدة عدوه وعدو عقيدته ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾[3].

وهذه الحقيقة ـ كذلك ـ هى التى تمكن المؤمن من الاستجابة لقول الله سبحانه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولوهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[4].

---

(١) االتوبة ٢٤ ٢) المائدة ٥٤ (٣) التوبة ٤٤ (٤) الأنفال ١٥، ١٦

ولقوله عز وجل:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[1].

وكشأن الكتاب الكريم دائمًا فى عدم إغفال الطبيعة البشرية وما يعتريها فى بعض الأحيان من تردد وضعف خاصة بالنسبة للتكاليف التى تؤلف المشقة المادية جزءاً من مقوماتها ، فقد حبب الله المؤمنين فى الجهاد بالأسلوب الذى يرضى كثيراً من النفوس وذلك قوله سبحانه :

﴿ يا أيها الذين أمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريب ﴾[2].

وقوله جل شأنه:

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعداً عليه حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدِه من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[3].

---

(١) الأنفال ٤٥ (٢) الصف ١٠ - ١٣ (٣) التوبة ١١١

المسالمة البناءة وعدم الاعتداء

ومن مميزات المؤمن ألا يعتدى على الغير ولو كان مخالفًا له فى عقيدته وهى أعز شىء عنده ، ذلك لأن الإسلام لا يقر الظلم ولا يبارك العدوان ، وأن تعاليمه تدعوا إلى إشاعة السلام والأمن والطمأنينة بين عباد الله وإن تفرقت بهم السبل حتى فى إباحته للقتال دفاعًا عن النفس وعن العقيدة ، نجد أن الهدف الذى يرمى إليه هو تأمين الحياة لكل إنسان دون إكراه ولا رهق ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفورٌ رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[١] .

ولم يغفل القرآن ما تميل إليه النفس البشرية من حب الانتقام عندما يعتدى عليها فدعا إلى كبح جماح هذه الرغبة فى نفوس أتباعه فى

---

(١) البقرة ١٩٠-١٩٣

الوقت الذى أباح لهم الانتصار ممن ظلمهم وأوجب العدل والمعاملة بالمثل فى قوله تعالى :

﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[1].

وفى قوله سبحانه :

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾[2].

ولم يغفل الكتاب الكريم ـ كذلك ـ ما يكون من طبيعة البشر فى تبرير ما يصدر عنهم من تصرفات ، ومحاولة إيجاد سبب يستندون إليه لإشباع رغبة فى نفوسهم فأنار الطريق ، وحدد المعالم .

فى مثل قوله عز وجل :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾[3].

والقرآن ـ كما يعرف قارئوه ودارسوه ـ لم يفرض قيام المدينة الفاضلة فى هذه الدنيا كما تخيل بعض الفلاسفة ، وإنما عالج الحياة الإنسانية بما فيها من حقائق وطبائع ونزعات ورغبات وغرائز وميول عالجها بما يصلحها ، وبما هو فى استطاعة البشر أن يفعلوه ويستجيبوا له ، ويهمنا

---

(١) البقرة ١٩٤ (٢) النحل ١٢٦ (٣) المائدة ٢

الآن أن نتعرف على الطريقة التى رسمها، القرآن الكريم لإنهاء النزاع بين أفراد بنى الإنسان والذى لا تخلو منه جماعة فى دنيا الناس.

والمتبع لتشريع الكتاب الكريم فى هذا الباب ، يجد أن إشاعة السلام والبعد عن العنف هو المنهج المفضل، وأن الصلح والعمل على الوصول إليه، هو الوسيلة الأولى التى أوجب القرآن على المسلم أن يبدأ بها، ولا يباح له اللجوء إلى استعمال القوة إلا إذا فشلت كل محاولة لفض النزاع بالطريق السلمى.

نجد ذلك فى تشريع القرآن للجماعة الأولى فى الدولة الإسلامية وهى الأسرة ، حينما نقرأ قوله تعالى :

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[1].

ونجده ـ كذلك فى تشريعه للجماعة المسلمة فى دائرتها الأوسع إذا ما دب خلاف بين طائفتين منها، حين نقرأ قوله سبحانه :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصحلوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون

---

(١) النساء ١٢٨

إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾[1] .

ثم نجده في معالجة القرآن للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين وفي أسوأ حالاتها وهي الحرب ، حيث يوجب على المسلمين أن يجنحوا للسلم إذا جنح العدو لها حتى وإن ظن المسلمون أن عدوهم يريد أن يخدعهم ، يقول الله عز وجل :

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله .. ﴾[2] .

والدعوة القرآنية إلى المسالمة ليست دعوة إلى الاستسلام والخضوع لمنطق القوة ، لأن المسالمة التي يرتضيها ويطالب بها هي المسالمة البناءة . المسالمة التي تثمر الجو الصالح الذى ينعم فيه كل طرف من أطراف النزاع بالطمأنينة والأمن ، ومن هنا كان العفو محموداً إذا أدى إلى الإصلاح ، وقضى على أسباب النزاع ، وإلا فالانتصار وردع المعتدى بالطريقة التي اعتدى بها دون تجاوز ولا طغيان هو الطريق إلى إيجاد الجو المنشود . يقول الله تبارك وتعالى في أوصاف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون :

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾*

---

(1) الحجرات ٩ ، ١٠ (٢) الأنفال ٦١ ، ٦٢

* يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية .

«أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم وليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا» .

﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ﴾[١] .

*****

---

(١) الشورى ٣٩ ـ ٤٢

العدل فى جميع أبعاده

والمجتمع المؤمن مجتمع مثالى قدر استطاعة أفراده، مثالى بالنسبة للبناته التى تكونه، ومثالى بالنسبة لكل ما يتصل به من قريب أو بعيد. إنه مجتمع يقوم على قواعد العدل فى جميع أقطاره فيعمه الأمن، ويشعر كل فرد فيه بالطمأنينة والثقة.

والعدل: هو إعطاء الحق لصاحب الحق، سواء أكان هذا الحق مادياً أم معنوياً، وقد عنى القرآن الكريم بتوضيح وجوبه على المؤمن فى كل تصرف يصدر عنه، والقانون العام فى ذلك هو قول الله تبارك وتعالى:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1].

وبالرغم من وضوح هذا القانون وشموله، فإن كل نوع من التصرفات يتصور فيه الانحراف عن الجادة، قد حظى من القرآن الكريم بلفتة كريمة تؤكد المعنى المراد وتحذر من اتباع الهوى، وتخفف من غلواء العداوة والكراهية بين أفراد بنى الإنسان، فالقرآن يبيح للمسلم أن يعدد زوجاته إلى أربع فيقول: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾[2].

---

(١) النحل ٩٠ (٢) النساء ٣

ولكن تعدد الزوجات فى البيت الواحد وفى رعاية رجل واحد فيه مظنة التفرقة بينهن فى المعاملة، وفى التفرقة ظلم بين لمن قل حظها ولذا نجد القرآن الكريم يردف هذه الإباحة بما يوجب العدل وبأسلوب حكيم يوجه المسلم إلى أن مجرد خوفه من عدم العدل ينبغى أن يكون مانعا له من التزوج بأكثر من واحدة وذلك لقوله سبحانه وتعالى وفى نفس الآية: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم. ذلك أدنى ألا تعولوا﴾.

ونقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلي أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[١].

وبجانب هذا التوجيه العام والأمر الواضح بالعدل فى الأحكام نجد الكتاب الكريم يعنى بالمعانى النفسية التى قد تؤثر فى النفس فتميل بها عن الطريق السوى وينبه إلى وجوب التغلب عليها فى سبيل أداء الواجب وإشاعة العدل بين عباد الله، يقول جل شأنه:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما

(١) النساء ٥٨

فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[1] . ويقول عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾[3] .

ويدعو القرآن إلى توثيق الدين حفظًا للحقوق وإغلاقًا لباب الشر الذى تهب ريحه بسبب الخلاف بين الدائن وبين المدين فنقرأ فيما يوصى به : ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ .

كما نقرأ فى نفس الموضوع فى نفس الآية :

﴿ وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ﴾[4] .

وحفاظًا على الحقوق كذلك ، أوجب القرآن الشهادة فى كثير من أنواع التعامل بين الناس ، ولتكون الشهادة مقبولة لدى الطرفين وقاطعة النزاع بينهما ، كان لا بد من أن يكون الشاهد من أهل العدل حتى لا يحيد عن طريق الحق لهوى أو إغراء .

---

(١) النساء ١٣٥ (٢) المائدة ٨ (٣) الأنعام ١٥٢ (٤) البقرة ٢٨٢

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾[١].

ويقول جل شأنه فى شأن المطلقات طلاقًا رجعيًا :

﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذٰلكم يوعظ به ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾[٢].

ويرسم الله سبحانه الطريق المثلى لفض المنازعات التى تقع بين طوائف الجماعة المؤمنة فيقول جل شأنه:

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[٣].

وبذلك أوجب ألا تطغى الرغبة فى إصلاح ذات البين على مراعاة العدل وإعطاء كل جانب حقه.

*****

---

(١) المائدة ١٠٦ (٢) الطلاق ٢ (٣) الحجرات ٩

الإخـلاص لله

ومن مستلزمات الإيمان بوجود الله ووحدانيته أن تكون عبادة الإنسان خالصة له وحده سبحانه وتعالى، وأن يقصد بكل تصرف يصدر عنه وجه الله العلى الكبير، ومن هنا كان الخطاب الإلهى للرسول ﷺ فى قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص﴾(١).

وكان الأمر الإلهى الموجه إليه ﷺ فى قول الله سبحانه:

﴿قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾(٢).

وقوله جل شأنه: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له دينى﴾(٣).

ومع أن خطاب الرسول يعتبر خطاباً لأمته فإن القرآن الكريم قد عمم الخطاب فى قوله عز وجل:

﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾(٤).

وفى قوله جل شأنه:

﴿هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾(٥).

---

(١) الزمر ٢-٣ (٢) الزمر ١١ (٣) الزمر ١٤
(٤) غافر ١٤ (٥) غافر ٦٥

وفى قوله سبحانه :

﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾[1].

والإخلاص لله في العقيدة فطرى فى النفس، تتوجه إليه عندما تتخلص من مؤثرات البيئة، وخاصة عندما يقع الإنسان فى مأزق ويحاط به ويتأكد ألا ملجأ من الله إلا إليه، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[2].

وفى قوله عز وجل :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾[3].

وقوله جل شأنه :

﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾[4].

وقوله كذلك :

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾[5].

---

(١) الأعراف ٢٩ (٢) يونس ٢٢ (٣) الإسراء ٦٧
(٤) العنكبوت ٦٥ (٥) لقمان ٣٢

فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن يتجسم فى أن غير المؤمن لا يرجع إلى فطرته ولا يؤمن بربه، ولا يتوجه إلى الطريق المستقيم إلا تحت ضغط الظروف القاهرة، ورجاء أن ينقذ نفسه مما أحاط به من هول، وما تعرض له من أخطار، فإذا زالت الغمة، وتلاشت عوامل الرعب ضل الطريق مرة أخرى، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾[1] .

وفى قوله سبحانه :

﴿ ... فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾[2] .

وفى قوله عز وجل :

﴿ .... فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[3] .

أما المؤمن فقلبه عامر بالعقيدة القوية فى الله سبحانه ، سواء أكان فى يسرٍ أم فى عسرٍ ، وسواء أكان فى البر أم فى البحر ، وهو فى تصرفاته كلها لا هدف له إلا ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه.

******

---

(١) يونس ٢٣ (٢) الإسراء ٦٧ (٣) العنكبوت ٦٥

الشكر أو الاعتراف بالجميل

ومن أهم المميزات التي تكون صورة المؤمن ، الشكر والاعتراف بالجميل لصاحب الجميل ، ولا يتحقق هذا الاعتراف إلا إذا آمن المرء بمصدر النعمة ومسديها ، وأيقن بالحاجة الدائمة إليه ، وعدم الاستغناء عنه ، ومن هنا كان الشكر مرادفًا للإيمان ، وكان عدم الشكر مرادفًا للكفر ، وهو ما تنطق به آيات الكتاب الكريم ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[1] .

ويقول جل شأنه :

﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[2] .

ويقول عزل وجل :

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنىٌّ حميد ﴾[3] .

ويقول سبحانه :

﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[4] .

---

(١) البقرة ١٥٢ (٢) ابراهيم ٧ (٣) لقمان ١٢ (٤) الزمر ٧

ويقول أيضا :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1].

ويحكى القرآن الكريم ما نطق به إبليس بعد أن طرد من رحمة الله. فكان منه :

﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[2].

ويحكى الكتاب الكريم كذلك ما نطق به نبى الله سليمان عليه السلام عندما رأى عرش بلقيس. وقد استقر عنده وأنه قال :

﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[3].

ويقص علينا القرآن أيضاً قصة سبأ فنقرأ فيها :

﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل

---

(١) الإنسان ٢ ، ٣ (٢) الأعراف ١٦ ، ١٧ (٣) النمل ٤٠

وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾[1] .

والنعم التى توجب الشكر لله سبحانه وتعالى كثيرة متنوعة وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[2] .

وكلها يتوقف عليها صلاح الحياة الإنسانية فى جانبيها المادى والروحى . وقد ذكر القرآن أهم أنواعها وطالب بالشكر عليها ، كما استنكر الجحود وعدم الاعتراف بالجميل لمانحها ومعطيها ، وبتتبع الآيات التى تحدثت عن هذه النعم يمكن أن نقسمها إلى :

(أ) نعم مادية .

(ب) ونعم معنوية أو روحية .

أما النعم المادية فنجد منها :

١ ـ نعمة الطعام الذى لا يعيش الإنسان بدونه ولا ينمو بدنه ولا يصح إلا به . ونقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[3] .

وقوله سبحانه :

---

(١) سبأ ١٥ ـ ١٧ (٢) ابراهيم ٣٤ ، النحل ١٨ (٣) البقرة ١٧٢

﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[1].

وقد ذكر القرآن الكريم مصدرين لهذا الطعام ، أما المصدر الأول ، فهو الأرض ، وذلك فى قوله عز وجل:

﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ﴾[2].

وقوله جل شأنه:

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ﴾[3].

وأما المصدر الثانى لطعام الإنسان فهو الحيوان الذى ذلله الله له وسخره لنفعه. ويقول الكتاب الكريم فى ذلك:

﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾[4].

ويقول: ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون ، وذللناها لهم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها

---

(١) النحل ١١٤ (٢) سبأ ١٥ (٣) يس ٣٣ - ٣٥
(٤) الحج ٣٦

منافع ومشارب ، أفلا يشكرون ﴾[1].

٢ ـ نعمة الماء الذى لا بد لكل حى أن يحصل عليه، ويقول الكتاب الكريم: ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أُجَاجاً فلولا تشكرون ﴾[2].

٣ ـ نعمة الليل والنهار، وحاجة الإنسان إليهما معاً لتنظيم حياته والانتفاع بما وهبه الله من طاقة لا تحتاج إلى دليل. نقرأ فى ذلك قول الله تبارك وتعالى :

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون ؟ ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟ ! !

وَمِن رَّحْمَتِهِ جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[3].

٤ ـ ما أنعم الله به على الإنسان من تسخير للبحر ، وما يسر له فيه من طعام وزينة ، وما يجرى فوقه من فلك يستخدمها فى إشباع ميوله وتحقيق رغباته ، وقضاء حاجاته ، ويقول الكتاب الكريم فى ذلك :

---

(١) يس ٧١ ـ ٧٣ (٢) الواقعة ٦٨ ـ ٧٠ (٣) القصص ٧١ ـ ٧٣

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[1] .

ويقول :

﴿ وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغٌ شرابُهُ وهذا ملحٌ أُجَاجٌ ، وَمِن كُلٍ تأكلون لحماً طرياً . وتستخرجون حِليةً تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[2] .

ويقول أيضاً :

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[3] .

وأما النعم المعنوية والروحية فأبرز ما ذكر القرآن منها :

١ ـ نعمة التعلم التى اختص الله بها الإنسان وجعلها من مميزاته ، وما وهب الله عباده من وسائل وسبل توصل إليه ، ونجد ذلك فى قول الله سبحانه :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[4] .

---

(١) النحل ١٤ (٢) فاطر ١٢ (٣) الجاثية ١٢ (٤) النحل ٧٨

وفى قوله عز وجل.

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون ﴾[1].

وفى قوله جل شأنه :

﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون ﴾[2].

٢ ـ نعمة الهداية والرحمة السابغة ، وتتمثل فى التشريعات التى تصلح بها حياة الناس ، وفى التيسير عليهم ودفع الحرج عنهم ونقرأ ذلك فى قوله تعالى :

﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدةٌ من أيام أُخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾[3].

وفى قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم

---

(١) المؤمنون ٧٨ (٢) السجدة ٧ ـ ٩ (٣) البقرة ١٨٥

إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبًا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ أو جاءَ أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبًا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾[1].

وفى قوله جل شأنه :

﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾[2].

٣ ـ نعمة العون الإلهى وتمكين المؤمنين من النصر رغم قلتهم بالنسبة لأعدائهم فى العدد والعدة. ونقرأ فى ذلك قول الله سبحانه :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[3].

وقوله جل شأنه :

﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم

---

(١) المائدة ٦ (٢) المائدة ٨٩ (٣) آل عمران ١٢٣

الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[1].

وقد بين القرآن الكريم أن الشكر كما يجب لله عز وجل ، فهو واجب كذلك لكل من يسدى جميلاً للإنسان من بنى جنسه ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكُر لى ولوالديك إلى المصير ﴾[2].

ولعل الاقتصار على ذكر شكر الوالدين فى هذا المقام إنما يرجع إلى أن إسداء الجميل منهما أمر مؤكد لا شك فيه ، ثم يقاس عليهما كل من أسدى معروفًا لغيره .

وإذا كان شكر الإنسان لله سبحانه يتمثل فى الإيمان به وفى الطاعة التامة لأوامره والبعد عن حرماته ، ولا يتصور فيه مقابلة الجميل بمثله ، لأن الله غنى عن العالمين ، ولأن الإنسان فى فقر دائم إليه ، فإن شكر الإنسان للإنسان إنما يكون برد الجميل بالجميل ، ومحاولة الزيادة عليه قدر الإمكان اعترافًا بالفضل وتوثيقًا لرباط المودة ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن مما يشرح الشكر الذى أوجبه الله على الإنسان لوالديه ما جاء فى قول الله سبحانه :

---

(١) الأنفال ٢٦ (٢) لقمان ١٤

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾[1].

ولعلنا لا نعدو الصواب كذلك إذا استشهدنا فى هذا المقام بقوله عز وجل :

﴿ وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾[2].

وإذا كان الشكر مرادفًا للإيمان كما بينا فى أول الحديث، فلا عجب إذًا أن نقرأ فى الكتاب الكريم ثناء الله على عبده ونبيه نوح عليه السلام بقوله تعالى :

﴿ . . .إنه كان عبداً شكوراً ﴾[3].

وثناءوه جل شأنه على أب الأنبياء وخليله إبراهيم عليه السلام بقوله سبحانه :

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾[4].

ولا عجب كذلك فى أن يكون الشكر عنصراً هاماً من عناصر الرسالة

(١) الإسراء ٢٣، ٢٤ (٢) النساء ٨٦ (٣) الإسراء ٣ (٤) النحل ١٢٠، ١٢١

أمر به كل رسول من رسل الله.

وهو مصداق قوله تعالى فى خطابه لخاتم الأنبياء ﷺ :

﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾[1].

وفى ختام الحديث عن الشكر :

نذكر قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملتهُ أمهُ كرهاً ووضعتهُ كرهاً وحملهُ وفصالهُ ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[2].

فهنا نجد التقويم الإلهى للشكر الصادر عن الإيمان العميق والإحساس بالواجب ، فى وقت بلغ الإنسان فيه أشده واكتملت قوته، مما يمكن أن يكون سبباً للزهو والغرو، ولكنه لم ينس خالقه ، ولم يتنكر لواجبه وامتلأ يقيناً بأنهُ فى حاجة ماسة إلى رحمة ربه ، وفي حاجة إلى عونه فى أداء ما ينبغى أن يكون عليه من شكر لنعمته ، وفى توفيقه لعمل الخير

---

(١) االزمر ٦٥، ٦٦ (٢) الأحقاف ١٥، ١٦

وفى تحقيق ما يرجو من صلاح لذريته ، إنه يؤمن بنعمة الله عليه فى الماضى فيشكرها ، ويحس بحاجته إليها فى الحاضر فيتوجه إلى خالقه يرجو أن يهبه التوفيق والهداية ، كما يحس بحاجته إليها فى مستقبله الذى يتمثل فى ذريته ، فيدعوه إصلاحها وهدايتها .

****

قوة الإرادة وضبط النفس

ومن المقرر فى عالم الفكر أن الإنسان (حيوان ناطق) وأن الفرق بينه وبين عالم الحيوان إنما يتركز فى استخدام ما وهبه الله من قوة التفكير والتدبر، يصلح عن طريقها شأنه، ويتكيف بمعونتها مع المخلوقات التى تشاركه الحياة فى الأرض وتختلف طبيعتها عن طبيعته، وتتحقق بها مسئوليته عما يصدر منه من تصرفات.

وهذا الذى يقرره العلم ليس غريباً على الذين يطلبون المعرفة عن طريق كتاب الله عز وجل ، ذلك الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فنحن نقرأ فيه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

وقد لا يوجد مجال يتضح فيه الانتفاع بنعمة الفكر والتدبر كالمواقف التى تستدعى قوة الإرادة وضبط النفس، لأنها تتطلب من الإنسان التغلب على طبيعته الفجة ، والترفع عن الخضوع لرغباته الجامحة

---

(١) الأعراف ١٧٩

وغرائزه الحيوانية ، تتطلب منه أن يتحقق معنى الإنسانية فى تصرفاته كلها .

وإذا كان المؤمن هو النموذج الحى للإنسان ، الحق فقد كان من الطبيعى أن يكون قوى الإرادة ضابطاً لنفسه ، ونجد فى توجيهات القرآن الكريم ما يطالبه بتحقيق ذلك فى المواقف التى ينبغى أن يسود فيها ، إن كل آية يطالب المؤمن فيها بالصبر فى ميدان الحياة العامة أو فى ميدان الحرب ، إنما هى دعوة إلى قوة الإرادة فى الإيمان بقضاء الله وقدره ، ودعوة إلى ضبط النفس وعدم انسياقها مع التيار الذى يجرفها إلى بحر اليأس والكراهية للكفاح ، ولنقرأ فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[١] .

وقوله عز وجل :

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٢] .

---

(١) البقرة : ١٥٥ - ١٥٧ (٢) آل عمران ١٨٦

وقوله جل شأنه :

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[1].

وقد يلفت النظر أن الكتاب الكريم عنى ببعض نواحى الحياة عناية خاصة ، وطالب المؤمن فيها بضبط النفس وعدم الإقدام على ما يمليه عليه ميله الطبيعى فى كل مقام منها .

فعاطفة الكراهية بين شخص وآخر قد تدفعه إلى أن يغمطه حقه إذا أمكنته الظروف من ذلك ، إيلاماً وانتقاماً منه ، وقد تدفعه إلى أن يتحين الفرص للاعتداء عليه ، ويعمل جاهداً لتبرير ذلك الاعتداء وإيجاد أسباب يستند إليها فى تصرفه ، ويعالج القرآن هذه الناحية فيحذر المؤمن من أن يخضع لعاطفته فى مثل هذه الحالات ، ويطالبه بأن يضبط نفسه ويحفظها فى حدود الإنسانية المحمودة ، يقول الله تبارك وتعالى فى الحالة الأولى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2].

ويقول فيها كذلك :

---

(١) محمد ٣١ (٢) المائدة ٨

﴿يا أيهــا الـذين آمنوا لا يحل لكـم أن ترثـوا النســـاء كَــرهًـا ولا تعـضلوهـن لتذهـبوا ببعض ما آتيتـمـوهن إلا أن يأتين بـفـاحـشـة مـبـينةً وعاشرون بالمعروف فإن كـرهتـموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[1].

ويقول عز وجل فى الحالة الثانية :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولاّ آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانـاً وإذا حللتم فـاصـطادوا ولا يجـرمنكم شنآن قـوم أن صـدوكـم عن المسـجـد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البـر والتقـوى ولا تعاونـوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[2]

وعاطفة حب الذات وحب من تربطه بالإنسـان رابطة قربى قد تدفعه إلى الانحراف عن الحق وتحريف الشـهادة بحثـاً وراء فائدة أو هربـاً من خسـارة لا تطيقـهـا نفسـه ، ويعـالج القـرآن ذلك أيضـا بالمطالبـة بـاتبـاع العدل وعدم اتباع الهوى ، وفى ذلك من ضبط النفس ما لا يحتاج إلى بيان أو شرح.

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿يا أيهـا الذين آمنوا كـونوا قـوامين بـالقـسط شـهـداء لله ولو على

---

(١) النساء ١٩ (٢) المائدة ٢

أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[1] .

وفى مجال المعاملة بين الناس بعضهم وبعض ، كثيراً ما يساء إلى الإنسان من غيره ويكون فى موقف يمكنه من الانتقام ورد الصاع صاعين وفى ذلك من تقطيع الأواصر وإضعاف المودة بين أفراد الجماعة ما قد يؤدى إلى فنائها ، ويعالج القرآن الكريم هذه الحالة بما يقضى على جرثومة العداوة ، ويثمر المحبة وحسن الصلة بين أفراد بنى الإنسان ويطالب المؤمن القادر على الانتقام ممن أساء إليه بأن يضبط نفسه ويعلوا عن مستوى العاطفة الطبيعية إلى مستوى الإنسانية فيقابل السيئة لا بالعفو فحسب ، وإنما يقابلها بالحسنة وإسداء المعروف ، ويوضح الكتاب الكريم أن هذا المطلب ليس سهلاً على كل فرد لما يتطلبه من مجهود لا يطيقه الإنسان العادى ، وذلك هو قول الله سبحانه :

﴿ ولا تستوى الحسنةُ ولا السيئةُ أدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم ﴾[2] .

---

(١) النساء ١٣٥ (٢) فصلت ٣٤ ، ٣٥

خاتمـــة

تلك هى الصفات التى لا توجد حقيقة الإيمان الكامل إلا بتحققها ولا يوصف أبن آدم بالإنسانية إلا إذا تحلى بها، وبمجموعها :

١ ـ يكون المرء دائما على ذكر من ربه ، يرجو رحمته ويخاف عذابه، ويتأمل مظاهر قدرته فيزداد إيمانه ، ويؤمن بحكمته وعدله فتتضاعف ثقته به، ويرضى بما قسم له ويخلص عبوديته لخالقه فيناجيه في صلاته ويؤدى حقه كما أمر .

٢ ـ ويكون لبنة صالحة في بناء المجتمع الذى يعيش فيه ، يسعى لتقويته فيأمر بالمعروف ، وينقيه من عوامل الهدم فينهى عن المنكر ، وينتفع بكل ما وهبه الله من نعمة بإعراضه عن اللغو فيما يقول وفيما يفعل .

٣ ـ ويكون مثلاً أعلى فى حسن المعاملة ، فهو رجل سلام لا يعرف الاعتداء ، ومحترم لنفسه فلا يعرف الخنوع ، وعادل قدر استطاعته ، فلا يحس منه إنسان بظلم ، وله من قوة الإرادة ما يمنعه من الانزلاق إلى ماتدعو إليه الميول الدنيئة، ومن ضبط

النفس ما يجمله بالصلابة والصبر إذا ابتلى ببعض الحشرات التى تنتمى إلى نوعه دون استحقاق.

٤ ـ ويعرف للعقيدة حقها ، فهى عنده أعز من نفسه وولده وماله ، لا يعوقه شيء من ذلك عن الجهاد فى سبيلها شكراً لخالقه ، واعترافاً بفضله ، ومحافظة على أن تظل كلمته سبحانه فى المكانة اللائقة بها تحقيقاً لقوله تعالى :

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ .

نضرع إليه سبحانه أن يملأ قلوبنا بالإيمان ، وأن يوفقنا لما فيه خيرنا فى الدنيا والآخرة.

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ﴾ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب ﴾ .

﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ .

******

الفهرس

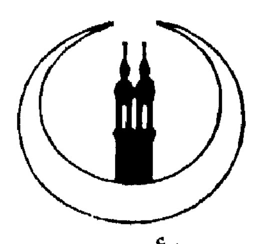
*****

الكتاب القادم :

نافذة على الإيمان

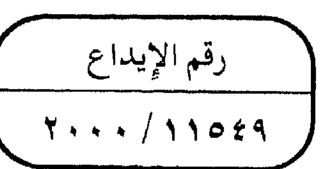
تأليف الأستاذ

مصطفى محمد الحديدي الطير



الأزهر

مطبعة المصحف الشريف



الثمن ٤ جنيهات